الرزق الحسن

السؤال : السُكَر ، أى : الخمر الله يمُن علينا بأننا نتخذه من ثمرات النخيل والأعناب - علمًا بأنه حُرم علينا - فكيف يكون ذلك ؟

الجواب : الحق سبحانه وتعالى يرشدنا فى هذه القضية بحكمة الحكيم ، ويعطينا عطاء لنحكم نحن فى الأمر قبل أن يأمرنا . إنه سبحانه يمتن علينا ويقول : ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل : ٦٧] .

فعندما ذكر الله ﴿ سَكَرًا ﴾ مر عليها بلا تعليق . وعندما قال : ﴿ وَرِزْقًا ﴾ وصفه بأنه ﴿ حَسَنًا ﴾ . فكان يجب أن نتنبه إلى أن الله يمهد لموقف الإسلام من الخمر ؛ فهو لم يصف « السكر » بأى وصف ، وجعل للرزق وصفًا هو الحسن ؛ فالناس عندما يستخرجون من هذه الثمرات سكرًا ، فهم قد أخرجوها عن الرزق الحسن ، لأن هناك فرقًا بين أن تأخذ من العنب غذاءً وبين أن تخمره فتفسده وتجعله ساترًا للعقل .

وبعد ذلك فهناك فرق بين تشريع ونصح . فعندما تنصح شخصًا فأنت تقول له : سأدلك على طريق الخير وأنت حر فى أن تسير فيه أو لا تسير . وعندما تشرع وتضع الحكم ، فأنت تأمر هذا الشخص أو ذاك بأن يفعل الأمر ولا شىء سواه .

والحق سبحانه عندما قال : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾ [البقرة : ٢١٩] . ذكر لنا المفاسد وترك لنا الحكم عليها ، قال سبحانه مُبلغًا رسوله : ﴿ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ ولو لم يقل : ﴿ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ لاستغرب الناس وقالوا : نحن نأخذ من الخمر منافع ، ونتكسب منها ، وننسى بها همومنا ، كانت هذه هي المنافع بالنسبة لهم ، لكن الحق يوضح أن إثمهما أكبر من نفعهما ، أى : أن العائد من وراء

تعاطيهما أقل من الضرر الحادث منهما ، وهذا تقييم عادل ، فلم تكن المسألة قد دخلت فى نطاق التحريم ، لأنها ما زالت فى منطقة النصح والإرشاد .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ يجعل فيهما نوعًا من الذنب ، لقد كان التدرج فى الحكم أمرًا مطلوبًا لأنه سبحانه يعالج أمرًا بإلف العادة ، فيمهد سبحانه ليخرجه عن العادة . والعادة شىء يقود إلى الاعتياد ؛ بحيث إذا مر وقت ولم يأت ما تعوّدَتْ عليه نفسيتُك ودمك يحدث لك اضطراب . وما دامت المسألة تقود إلى الاعتياد ، فالأفضل أن تسد الباب من أوله وتمنع الاعتياد .

لقد كانت بداية الحكم فى أمر الخمر أن أحدًا من المسلمين شرب الخمر قبل أن تُحرم نهائيا ، وجاء ليصلى ، فقال : « قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون » وبعدها نزل تأديب الحق بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء : ٤٣] .

وفي ذلك تدريب لمن اعتاد الخمر ألا يقربها ؛ فالإنسان الذى يصلى صدر عليه الحكم ألا يقرب الصلاة وهو سكران ، فمتى يمتنع إذن ؟ إنه يصحو من نومه فلا يقرب الخمر حتى يصلى الصبح ، ويقترب الظهر فيستعد للصلاة ، ثم العصر بعد ذلك ، ويليه المغرب فالعشاء ، أي لن يصبح عنده وقت ليشرب فى الأوقات التى ينتظر فيها الصلاة ، إذن فلا تصبح عنده فرصة إلا فى آخر الليل ، فإذا ما جاء الليل يشرب به كأسًا ثم يغط فى نومه . ويكون الوقت الذى امتنع فيه عن الخمر أطول من الوقت الذى يتعاطى فيه الخمر .

ولما بدأ تعودهم على الخمر يتزعزع ، حدثت بعض الخلافات والمشكلات التى دفعتهم لأن يطلبوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يوضح لهم حكمًا فاصلاً فى الخمر فنزل قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : ٩٠] .

قضية تقليد الأجيال

السؤال : **قضية تقليد الأجيال بعضها لبعض لابد منها فهل تقع للبشرية أضرار ؟ نرجو توضيح ذلك .**

الجواب : التقليد هو نشأة طبيعية فى الإنسان ، لأن الإنسان حين يخرج للوجود مُمدا بطاقة الحياة ؛ فهذه الطاقة تريد أن تتحرك ؛ وحركتها تأتي دائمًا وفق ما ترى من حركة السابق لها ، فالطفل الصغير لا يعرف أن يده تتناول أشياء إلا إذا رأى فى البيئة المحيطة به إنسانًا يفعل ذلك ، وحين يريد الطفل أن يتحرك ، فهو يقلد حركة الذين من حوله ، ولذلك تجد الأطفال دائمًا يقلدون آباءهم فى معظم حركاتهم ، وحين يوجد الأطفال مع أجيال متعاقبة تمثل أعمارًا مختلفة ، فإن الطفل الصغير يقلد فى حركته البدائية خليطًا من حركات هذه الأجيال ، فهو يقلد جده ، ويقلد جدته ، ويقلد أباه وأمه ، وإخوته ؛ فتنشأ حركات مختلطة تمثل الأجيال كلها .

ولذلك ؛ فاندماج الطفل فى أسرة مكونة من آباء وأجداد ، تمثل فى الإنسان طبيعة الحياة المتصلة بمنهج الحركة فى الأرض وبمنهج السماء ؛ لأن الطفل حين يعيش مع أبيه فقط ، قد يجده مشغولاً فى حركة الحياة التى ربما شدته عن قيم الحياة أو عن منهج السماء ؛ لكنه حين يرى أبًا لأبيه ؛ هو جده قد فرغ من حركة الحياة ، واتجه إلى منهج القيم ؛ لأنه قريب عهد - فيما يظن - بلقاء اللّه ، فإن كان لا يصلى فى شبابه فهو يصلى الآن ، وإن كان لا يفعل الطاعات سابقًا ؛ أصبح يفعلها الآن ، وهكذا يرى الطفل حركة الحياة الجامحة فى الدنيا والتلهف عليها من أبيه ، ويجد الإقبال على القيم والعبادات من جده ، ولذلك تجده ربما عاون جده على الطاعة ؛ فساعة يسمع الطفل المؤذن يقول : « اللّه أكبر » ، فهو يعرف أن جده يريد أن يصلى ؛ فيذهب هو ويأتى بالسجادة ويفرشها لجده ؛ ويقف مقلدًا جده ،

وإن كانت بنتًا ، فنحن نجدها تقلد أمها أو جدتها وتضع الغطاء على رأسها لتصلى ، إذن . . فاندماج الأجيال يعطى الخير من الحركتين ، حركة مادية الحياة وحركة قيم منهج السماء ، ولذلك يمتن الحق علينا قائلاً : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل : ٧٢] .

إذن . . فتقليد الأجيال اللاحقة للأجيال السابقة أمر تقتضيه طبيعة الوجود .

وحين يدعو الله الناس أن يتبعوا ما ينزله على الرسل فهو ينهاهم أن يتبعوا تقليد الآباء فى كل حركاتهم ، لأنه قد تكون حركة الآباء قد اختلت بالغفلة عن المنهج أو بنسيان المنهج ، لذلك يدعونا ويأمرنا سبحانه : أن ننخلع عن هذه الأشياء ونتبع ما أنزل الله ، ولا نهبط إلى مستوى الأرض ، لأن عادات ومنهج الأرض قد تتغير ، ولكن منهج السماء دائمًا لا يتغير ، فاتبعوا ما أنزل الله .

والناس حين يحتجون يقولون : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا . وتلك قضية تبريرية فى الوجود ، ولو كان ذلك حقا وصدقًا ، ومطابقًا للواقع ، لما كرر الله الرسالات بعد أن علم آدم كل المنهج الذى يريد ؛ لأننا لو كنا نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . لكان أبناء آدم سيتبعون ما كان يفعله آدم ، وأبناء الأبناء يتبعون آباءهم ، وهكذا يظل منهج السماء موجودًا متوارثًا فلا تغيير فيه .

إذن . . فما الذى اقتضى أن يتغير منهج السماء ؟

إن هذا الدليل على أن الناس قد غيروا المنهج ، ولذلك فقولهم : ﴿ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ هو قضية مكذوبة ، لأنهم لو اتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم ؛ لظل منهج الله فى الأرض مضيئًا غير متأثر بغفلة الناس ولا متأثرًا بانحرافات أهل الأرض عن منهج السماء . وهو تبرير يكشف أن ما وجدوا عليه آباءهم يوافق أهواءهم .

وقول الحق : ﴿ ٱتَّبِعُوا ﴾ أى : اجعلوا ما أنزل عليكم من السماء متبوعًا وكونوا تابعين لهذا المنهج ؛ لا تابعين لسواه ؛ لأن ما سوى منهج السماء هو منهج من صناعة أهل الأرض ، وهو منهج غير مأمون ،

وقولهم : ﴿ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ أى : ما وجدنا عليه آباءنا ، وما تفتحت عليه عيوننا فوجدناه حركة تُحتذى وتُقتفى .

والحق يبين لهم أن هذا كلام خطأ ، وكلام تبريرى وأنتم غير صادقين فيه ، وعدم الصدق يتضح فى أنكم لو كنتم متبعين لمنهج السماء ؛ لما تغير المنهج ، هذا أولاً ، أما ثانيًا ، فأنتم فى كثير من الأشياء تختلفون عن آبائكم ، فحين تكون للأبناء شخصية وذاتية فإننا نجد الأبناء حريصين على الاختلاف ، ونجد أجيالاً متفسخة ، فالأب يريد شيئًا والابن يريد شيئًا آخر ، لذلك لا يصح أن يقولوا : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ ؛ لأنه لو صح ذلك لما اختلف منهج الله على الأرض لكن المنهج اختلف لدخول أهواء البشر ، ومع ذلك نرى بعضًا من الخلاف فى سلوك الأبناء عن الآباء ، ونقبل ذلك ونقول : هذا بحكم تغيير واختلاف الأجيال ، أي أن الأبناء أصبحت لهم ذاتية . ولذلك فالقول باتباع الأبناء للآباء كذب لا يمثل الواقع .

والحق سبحانه وتعالى يرد على هذه القضية لأنها قضية تبريرية لا دليل لها من صدق ، ولا برهان لها من واقع . ويقول سبحانه : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] أى : أيتبعون ما وجدوا عليه آباءهم حتى ولو كان آباؤهم لا يعقلون ولايهتدون ؟ .

إذن . . فالرد جاء من ناحيتين ، من ناحية التعقل ، ومن ناحية الاهتداء ، وكل من التعقل والاهتداء منفي عن الآباء فى هذه الآية ، فأنتم تتبعونهم اتباعًا بلا تفكير ، اتباعًا أعمى . والإنسان لا يطيع طاعة عمياء إلا لمن يتيقن صدق بصيرته النافذة المطلقة ، وهذه لا يمكن أن تتأتى من بشر إلى بشر ، فالطاعة المطلقة لا تصح أن تكون لشىء إلا لمنهج السماء ، وحين تكون طاعة عمياء لم تثق ببصره الشافي الكافي الحكيم ؛ فهي طاعة مبصرة وبصيرة فى آن واحدٍ . لأنك تحمي نفسك من خطأ بصرك ، وخطأ بصيرتك ، وتلتزم فى التبعية بمن تعتقد أن بصره وبصيرته لا يخطئان أبدًا ، عندها لا تكون طاعة عمياء .

إذن . . فالحق سبحانه وتعالى ينبههم إلى أنه لا يصح أن تقولوا : إنكم

تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم ؛ لأنه يجوز أن يكون آباؤكم لا يعقلون ، ويجوز أن يكونوا غير مهتدين . لو كان آباؤكم لهم عقل أو لهم اهتداء ، عند ذلك يكون اتباعكم لهم أمرًا سليمًا ، لا لأنكم اتبعتم آباءكم ، ولكن لأنكم اتبعتم المعقول والهدى .

وهكذا نجد أن قضية التقليد هي أمر مزعوم ، لأنك لا تقلد مساويك أبدًا ؛ ولكنك تتبع من تعتقد أنه أحكم منك ، وما دام مساويًا لك فلا يصح أن تقلده فى كل حركة . بل يجب أن تعرض الحركة على ذهنك ، ولذلك فتكليف اللّه لعباده لم ينشأ إلا بعد اكتمال العقل بالبلوغ . فهو سبحانه لايأخذه على غرة قبل أن ينضج ؛ بل لا يكلف اللّه عبدًا إلا إذا نضج عقله ؛ ولا يكلفه إن لم يوجد له عقل ، ولا يكلفه إن لم تكن قوته وراء عقله ؛ فإن كان الإنسان سليم القوة والعقل فإن تكليفه يكون تامًا ، فسبحانه لا يكلف إلا صاحب العقل الناضج والذى لديه قدرة تمكنه من تنفيذ ما اهتدى إليه عقله ، أي غير مُكره . فالذي يكلف الإنسان بمقتضى هذه الأشياء هو عالم أن العقل إن وجد ناضجًا بلا إكراه فلابد أن يهتدي إلى قضية الحق .

إن الحق سبحانه لم يكلف الإنسان إلا بعد أن تكتمل كل ملكات نفسه ، لأن آخر مَلَكَة تتكون فى الإنسان هي مَلَكَة الغريزة ، أي أن يكون صالحًا للإنجاب ، وصالحًا لأن تمتد به الحياة . وقلنا من قبل : إن الثمرة التى نأكلها لا تصبح ثمرة شهية ناضجة إلا بعد أن تؤدي مهمتها الأولى ؛ فمهمتها ليست فى أن يأكلها الإنسان فقط . إنما أن توجد منها بذرة صالحة لامتداد الحياة ، وعندما توجد البذرة يكون أكل الثمرة صالحًا ، كذلك الإنسان ؛ لا يكون صالحًا لامتداد الحياة إلا بعد البلوغ أو فى سن البلوغ ، وسبحانه وتعالى جعل لهذه الغريزة سعارًا ؛ لأن الحياة التى ستأتي من خلالها لها تبعات أولاد ومشقات ، فلو لم يربطها اللّه بهذه اللذة لانصرف عنها كثير من الناس ، لكنه سبحانه يربطها باللذة حتى يوجد امتداد الحياة بدافع عنيف وقوي من الإنسان .

فالحق سبحانه لا يفاجئ الإنسان بتكليف إلا بعد أن يُعِدَّه إعدادًا كاملاً ، لأنه لو كلّفه قبل أن ينضج غريزيا ، وقبل أن تصبح له قدرة على

استبقاء النوع ، لقال الإنسان : إن الله كلفنى قبل أن يُوجد فىَّ ذلك ، عندئذ لا يكون التعاقد الإيمانى صحيحًا .

ولذلك يؤخر الحق تكليفه لعباده حتى يكتمل لهم نضج العقل ونضج الغريزة معًا ، وحتى يدخل الإنسان فى التكليف بكل مقوماته ، وبكل غرائزه ، وانفعالاته ؛ حتى إذا تعاقد إيمانيا ؛ فإن عليه أن يلتزم بتعاقده .

إذن . . فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يُربِّي فى الإنسان ذاتيته من فور أن يصبح صالحًا لاستبقاء النوع فى غيره ، وما دامت قد أصبحت له ذاتية مكتملة ، فالحق يريد أن يُنهى عنه التبعية لغيره ، عند ذلك لا يَقُولَنَّ أحد : « أفعل مثل فعل أبى » . لكن هناك من قالوا : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ ، لماذا يتبعون آباءهم فى المنهج الباطل ، ولا يتبعونهم فى باقي أمور الدنيا ، وفى الملابس ، وفى الأكل ، وفى كل مناحى الحياة ؟

مشاهد ليلة الإسراء والمعراج

السؤال : ما المشاهد التى رآها الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ؟

الجواب : الحق سبحانه وتعالى تكلم عن الإسراء برسوله صلى الله عليه وسلم فى سورة « الإسراء » ، ثم تكلم عنه فى سورة أخرى عن المعراج[١] ، وجاء بهاتين الآيتين للنبي الخاتم صلى الله عليه وسلم . وسورة الإسراء لها اسمان : تسمى سورة « الإسراء » ، وتسمى سورة « بنى إسرائيل » . فالإسراء فى استهلال السورة ، فى آية واحدة فقط . وبعد ذلك تتحدث السورة عن بنى إسرائيل ، وقصتهم مع موسى عليه السلام إلى آخر ذلك . ونحن قلنا : إن الحكمة من مجيء آية الإسراء بعد سورة النحل ؛ أنها ختمت بقوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝ ﴾ [النحل] ولكن لماذا جاء الحديث عن بنى إسرائيل ، بعد ذكر الإسراء ؟ قالوا : لأن اليهود ألفوا أن موسى عليه السلام أرسل إلى بنى إسرائيل ، فإذا جاء محمد صلى الله عليه وسلم وقال : أنا رسول للناس كافة ، فسيقولون لا . إن كنت رسولا فأنت مرسل للعرب فقط ، كما أرسل موسى إلى بنى إسرائيل . ولذلك ربنا سبحانه جعل بيت المقدس القبلة الأولى للمسلمين ، وأسرى برسوله إليها ؛ حتى يعلم القاصى والدانى أن بيت المقدس أحد مقدسات الإسلام ؛ وحتى لا يدعى أحد من غير المسلمين أن هذه له[٢] . وقد اتجه

---

(١) فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝ ﴾ [النجم] .

(٢) أما لماذا الإسراء إلى بيت المقدس قبل العروج إلى السماء ؟

قال الحافظ رحمه الله : روى كعب الأحبار : أن باب السماء الذى يقال له : « مصعد =

المسلمون إليها فى الصلاة فى بداية الإسلام ؛ لذلك ذكر الحق سبحانه موضوع الإسراء فى بداية السورة ، وبعد ذلك ذكر قصة بنى إسرائيل .

إن اللَّه سبحانه قدَّم آية الإسراء ؛ لأنها آية أرضية ، من الممكن أن يقام عليها الدليل . وقد أقام الرسول صلى اللَّه عليه وسلم الدليل عليها ، فوصف بيت المقدس ، وأخبرهم بالعير فى الطريق ، وموعد وصولها وأوصافها ، فخرق له الناموس فى المسافة بين المكانين وقصر الزمان . حتى إذا حدثنا أن الناموس خُرق له فى الصعود إلى السماء ، نصدقه ؛ لأنه أثبت لنا أنه خرق له الناموس فيما لا نعلم ، فهذا شىء ليس بمستغرب .

والحق سبحانه وتعالى أعطى رسوله صلى اللَّه عليه وسلم هذه المنزلة ؛ للجفاء الذى لقيه من أهل الأرض ، فأعطاه حفاوة الملأ الأعلى ، وأراه الآيات الكبرى .

والرسول صلى اللَّه عليه وسلم نال هذه المنزلة ؛ لأنه عبد للَّه .

إذن . . فعبودية محمد صلى اللَّه عليه وسلم لربه ، هي التى أعطته هذه المنزلة . وهناك فرق بين عبودية الخلق وعبودية الخالق .

فعبودية الخلق مذمومة ؛ لأن فى عبودية الخلق للخلق ، السيد يأخذ

= الملائكة » يقابل بيت المقدس ، فأخذ منه العلماء أن الحكمة من الإسراء إلى بيت المقدس قبل العروج ، ليحصل العروج مستويًا من غير تعويج ، وفيه نظر ، لورود أن فى كل سماء بيتًا معمورًا ، وأن الذى فى السماء الدنيا حيال الكعبة . وكان المناسب أن يصعد من مكة ليصل إلى البيت المعمور بغير تعويج ؛ لأنه صعد من سماء إلى سماء إلى البيت المعمور[1] .

وقد ذكر غيره مناسبات أخرى ضعيفة . فقيل : الحكمة فى ذلك أن يجمع النبى صلى اللَّه عليه وسلم فى تلك الليلة بين رؤية القبلتين ، أو لأن بيت المقدس كان هجرة غالب الأنبياء قبله ، فحصل له الرحيل إليه فى الجملة ، ليجمع بين أشتات الفضائل ، أو لأنه محشر ، وغالب ما اتفق له فى تلك الليلة يناسب الأحوال الأخروية ، فكان المعراج منه أليق بذلك . أو للتفاؤل بحصول أنواع التقديس له حسًا ومعنًى ، أوليجتمع بالأنبياء جملة ، والعلم عند اللَّه[2] .

---

(١) انظر فتح البارى [٧/ ٢٣٦] .

(٢) انظر المصدر السابق [٧/ ٢٣٧] .

خير عبده ، ولكن فى عبودية الخلق للخالق ، فالعبد يأخذ خير سيده . وقد أخذ محمد صلى الله عليه وسلم هذا الخير .

إن منهاج الرسل دائماً ،أنهم مرسلون من الله سبحانه وتعالى ، خالق الإنسان ، بقانون صيانة ذلك الإنسان ؛ لأننا جميعاً مقتنعون بأن صانع الصنعة ، هو الذى يقرر قانون صيانتها ، وأن صانع التليفزيون هو الذى يقرر قانون صيانته ، وكيفية استعماله وتشغيله ، وهكذا . . . إلخ .

إذن . . فكل مصنوع صانعه هو الذى يضع قانون صيانته . وحيث إنه لم يوجد أحد يدّعى أنه خلق الإنسان . إذن . . فالإنسان صنعة الله سبحانه وتعالى .

والله سبحانه وتعالى هوالذى يحدد قانون صيانة ذلك الإنسان ؛ لأن الله لا يخلق خلقه ، وبعد ذلك يتدخل الخلق ليضعوا قانون الصيانة ، نيابة عن الخالق جل وعلا ، إذا حدث ذلك تكون هذه حالة كحالة أن أذهب أنا - مثلاً - بالتليفزيون إلى الجّزار ؛ لكي يصلحه لى ، لا ، فالذى يضع قانون صيانة الشىء هو الذى خلق ، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾[1] [الملك : ١٤] والذى

---

(١) يقول القرطبى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ يعنى ألا يعلم السر من خلق السر . يقول : أنا خلقت السر فى القلب ، أفلا أكون عالماً بما فى قلوب العباد . وقال أهل المعانى : إن شئت جعلت ﴿ مَنْ ﴾ اسما للخالق جل وعز ؛ ويكون المعنى : ألا يعلم الخالق خلقه ؟ وإن شئت جعلته اسما للمخلوق ، والمعنى : ألا يعلم الله من خلق ؟ ولابد أن يكون الخالق عالماً بما خلقه وما يخلقه . قال ابن المسيب : بينما رجل واقف بالليل فى شجر كثير ، وقد عصفت الريح ، فوقع فى نفس الرجل : أترى الله يعلم مايسقط من هذا الورق ؟ فنودى من جانب الغيضة بصوت عظيم : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] ! وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني : من أسماء صفات الذات ماهو للعلم ؛ منها « العليم » ومعناه تعميم جميع المعلومات . ومنها « الخبير » ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون .

ومنها « الحكيم » ويختص بأن يعلم دقائق الأوصاف . ومنها « الشهيد » ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر ، ومعناه ألا يغيب عنه شىء .

ومنها « الحافظ » ويختص بأنه لا ينسى ومنها « المحصى » ويختص بأنه لاتشغله الكثرة=

يدلك على ذلك ، أن كل تشريع من تشريعات البشر إن أُحسن الظن برغبتهم فى الخير ، ورغبتهم فى الإصلاح ، عرضة لأن يتغير ويتبدل ، وأن يذهب ويجيء غيره ، ولا يبقى قانون من قوانين الوضع البشرى ، إلا ببقاء السوط الذى يحميه . فإذا ذهب السوط الذى يحميه انحل القانون بطبيعته ، فكأن وراء كل قانون بشرى قوة تحميه ، وحين تذهب هذه القوة يضمحل ويتلاشى .

وأحب أن أقول للذين يقننون : إن القوانين البشرية تقنن للنفس الإنسانية ، فماذا عرفتم فى النفس الإنسانية ؟ أنتم تعرفون زاوية ، ولكنكم تجهلون زوايا ماهية النفس الإنسانية ؟ هى ليست بطناً ومعدة فقط ، وهى ليست عقلاً يعى ويفهم فقط ، وهى ليست وجداناً فقط ، إنها ملكات متعددة ، وأنتم إلى الآن لاتعرفون عدد هذه الملكات ، فكيف تقننون لشىء لا تعرفونه .

إذن ، فالمقنّنون يعرفون شيئاً فيقننون له ، ويتركون الملكات الأخرى النفسية جائعة . وهنا . . ماذا يحدث للإنسان المتأثر باضطراب هذه الملكات ، وفيه ملكة شبعت وملكات جائعة ؟ لابد أن يحصل التمزق والقلق النفسى له . والدليل على ذلك مثلاً : أولئك الذين يعتبرون النظام الاقتصادى ، هو كل شىء فى الدنيا ، كالسويد ، التى هى بالإحصائيات أرقى دولة فى مستوى المعيشة . فالفرد فيها مرّفه رفاهية عالية جدا ، ومع ذلك ففى هذه الدولة الراقية ، أعلى نسبة انتحار بين شبابها ، علاوة على أمراضهم العصبية والجنونية . . إلخ .

وهذا دليل على أنه ليست المعدة هى كل شىء ، ولا الماديات هى كل شىء ، فهناك ملكات جائعات فى هذه النفوس ، وإلا فما الذى يدعو الإنسان إلى الانتحار وترك الحياة ؟ السبب أن لديه قلقاً ! وهو بحد ذاته

= عن العلم ؛ مثل ضوء النور واشتداد الريح وتساقط الأوراق ؛ فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات فى كل ورقة . وكيف لا يعلم وهو الذى يخلق ؟! وقد قال : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

تفسير القرطبى [١٨/ ٢١٤] .

لا يعرف مصدره !! ولا يعرف طريقاً إلى علاجه!! لأن فيه ملكات نفسية جهلها البشر ، فلم يقننوا لها ، وإن قننوا لها فتقنين جَاهل بها ، لم يخلقها .

إذن . . فالذى يخلق الشىء هو الذى يقّنن له ، وعلى ذلك : فالحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الخلق ، وهو الذى خلق النفس البشرية ، وهو الذى يقنّن لها . وقد جاءت الرسل لتنظيم حركة الحياة للإنسان ، وبقانون صيانته . وما دامت هذه هي مهمة الرسل عليهم الصلوات والسلام ،وهم بدورهم سيتعرضون لقوانين اقتصادية وسياسية ، وعملية واجتماعية وخلقية ، وسيتعرضون لأشياء كثيرة ، منها القوانين التَّعبديَّة ، والقانون التَّعبدى الذى يقول فيه اللّه سبحانه وتعالى : تقرب إليّ بكذا[١] ، ليس للعقل مجال فيه ؛ لأن اللّه سبحانه وتعالى يقول لك : تقرب إليّ بأن تصلى خمس صلوات بشكل مخصوص[٢] ، ولكن فى القوانين الأخرى ، التى تتعلق بنظام

---

(١) روى البخارى [٦٥٠٢] عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال ، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « إن اللّه قال : من عادى لى وليا ، فقد آذنته بالحرب ، وما تقرّب إليّ عبدى بشىء أحبّ إليّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إليّ بالنوافل حتى أُحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها . وإن سألنى لأُعطينّه ، ولئن استعاذنى لأُعيذنّه ، وما ترددّت عن شىء أنا فاعله ، ترددّى عن نفس المؤمن ، يكره الموت ، وأنا أكره مساءته » .
وروى البخارى [٧٤٠٥] ، ومسلم [٢٦٧٥/ ٢] عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال النبى صلى اللّه عليه وسلم يقول اللّه تعالى : « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلى شبرًا تقربت إليه ذراعًا ، وإن تقرب إلى ذراعًا تقربت إليه باعًا ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » .

(٢) عن عبادة بن الصامت رضى اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : « أتانى جبريل عليه السلام من عند اللّه تبارك وتعالى ، فقال : يا محمد إن اللّه عز وجل قال لك : إنى قد فرضت على أمتك خمس صلوات ، من وافاهن على وضوئهن ومواقيتهن ، وسجودهن ، فإن له عندى بهن عهدًا أن أدخله بهن الجنة ، ومن لقينى قد أنقص من ذلك شيئاً - أو كلمة تشبهها - فليس له عندى عهد إن شئت عذبته وإن وإن شئت رحمته » . أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده [١/ ٦٦ برقم ٢٥١] ، وأبو نعيم فى الحلية [٥/ ١٢٦] ، وحسّنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة [٨٤٢] . =

المجتمع ، سياسةً أو اجتماعًا ، أو . . . أو . . . إلى آخره ، فناقشها ما شئت بعقلك ، وقارنها بأى قانون اقتصادى فى العالم ، وستجد أن القوانين التى وضعها الإسلام لزوايا الحياة الاجتماعية ، هى المتفوقة ، وهى ذات السبق .

إذن . . ففى كل التعبدّيات لامجال للعقل ، ويجب التقرب إلى اللّه سبحانه وتعالى بما يريد . أما ما عدا التعبدّيات فناقشها بعقلك ، وقارنها بأرقى المستويات ، وستجد السبق والتميّز لها ، مع الشمول والاستيعاب . والدليل على ذلك : أن الأشياء التى كان أعداء الإسلام ، يأخذونها على الإسلام ، حينما كانوا يعدّلون قوانينهم ،كان القانون بعد تعديله ، يلتقى مع وجهة نظر الإسلام .

فمثلا : كانوا ثائرين على الإسلام فى مسألة الطلاق ، وبعد ذلك انتهوا فى إيطاليا ، وفى بعض الدول الأخرى ، إلى أن الحل السليم والوحيد لمشكلات أسرية مستعصية هو « إباحة الطلاق »[1] ؛وذلك لأنهم وجدوا

= وروى البخارى [٦٣١، ٦٠٠٨، ٧٢٤٦] عن مالك بن الحويرث قال : أتينا إلى النبى صلى اللّه عليه وسلم ونحن شببة متقاربون فأقمنا عنده عشرين يومًا وليلة ، وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رحيمًا رفيقًا ، فلما ظنّ أنّا قد اشتهينا أهلنا- أو قد اشتقنا - سألنا عمّن تركنا بعدنا ، فأخبرناه ، قال : « ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلّموهم ، ومروهم - وذكر أشياء أحفظها أو لا أحفظها - وصلّوا كما رأيتمونى أصلّى ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمّكم أكبركم » .

(١) قال تعالى : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ ثبت أن أهل الجاهلية لم يكن عندهم للطلاق عدد ، وكانت عندهم العدة معلومة مقدّرة ، وكان هذا فى أول الإسلام برهة ، يطلّق الرجل امرأته ما شاء من الطلاق ؛ فإذا كادت تحل من طلاقه راجعها ما شاء ؛ فقال رجل لامرأته على عهد النبى صلى اللّه عليه وسلم : لا آويك ولا أدعك تحلّين ، قالت : وكيف ؟ قال : أطلقك فإذا دنا مضيّ عدّتك راجعتك . فشكت المرأة ذلك إلى عائشة ؛ فذكرت ذلك للنبى صلى اللّه عليه وسلم ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية ؛ بيانا لعدد الطلاق الذى للمرء فيه أن يرتجع بدون تجديد مهر ووليّ ، ونسخ ما كانوا عليه . قال معناه عروة بن الزبير ، وقتادة وابن زيد وغيرهم . وقال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم : المراد بالآية التعريف بسنة الطلاق : أي من طلق اثنتين ، فليتق اللّه فى الثالثة . فإما تركها غير مظلومة شيئا من حقها ، وإما أمسكها محسنا عشرتها ؛ والآية تتضمن هذين المعنيين .

تفسير القرطبى [٣/ ١٢٦] .

شرور عدم الطلاق أكثر ؛ ولذلك فهم حُكْمًا يرتقون أو يستنيرون ، أوتعذبهم هذه الحياة بواقعها ! فيعودن بشكل مباشر إلى قانون الإسلام .

ومثلا نعرف أن أمريكا تُنفق ولا تزال ، من أجل محاولة تحريم أو تخفيف شرب الخمور ملايين الدولارات ، والإسلام حرّمها تدريجيا حتى يتيسّر للناس الطاعة من دون مشقة وانتهى الناس عنها ، وتعدد الزوجات ، الذى جعلوه عيبًا من عيوب الإسلام ،هم الآن يبحثون فى ضمّه لقوانينهم ؛ لأنهم يعتبرونه أفضل من النظام الموجود لديهم .

والقوانين الاقتصادية أيضًا ، إذا نظرت إليها ووجدتها ترقى ، فستجدها فى رقيها تحاول أن تلتقى مع أحكام الإسلام . فالإسلام جاء من أقصر طريق . . لماذا ؟ لأنه تقنين العليم بمن خلق .

حين أخبرنا اللّه سبحانه وتعالى بالمنهج ، نجد فيه أشياء نسميها نحن فى الوسائل التربوية الآن : وسائل إيضاح . ووسائلُ الإيضاح هذه تنقل الكلام النظرى إلى كلام عملى ، ومعنى وسائل الإيضاح : أنها أمر مادى عملى ، يرينا صدق القضية النظرية ، فإذا قلت : الحرارة تمدّد الأجسام ، فلكى نثبت ذلك لابد أن نوضحه بشكل عملى . مثال على ذلك : نأتى بحلقة معدنية ونمرر بها الكرة ، وسنجد أن الكرة تمرّ من الحلقة بسهولة ، ولكن لو تم تسخين الحلقة المعدنية وحاولنا بعد ذلك إدخال الكرة فى الحلقة المعدنية فلن تدخل! لماذا ؟ لأن حجم الحلقة قد تمدّد بالحرارة ، هذه هى وسيلة إيضاح قد بيّنت لنا هذه المسألة النظرية .

والدين يأتى بتشريعات ، فالرسول صلى اللّه عليه وسلم رأى فى هذه المرائى أشياء ، وهذه الأشياء تعطى له واقع الأوامر المنهجية ، التى أتى بها التكليف . فأول شىء يعرضه لنا مسألة الفطرة ، وتغيير الفطرة . وقد عُرض على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كأس من اللبن ، وكأس من الخمر ، فاختار عليه الصلاة والسلام كأس اللبن ، وهنا قال له جبريل : « هديت للفطرة »[1] ولنتساءل : ما معنى : هديت للفطرة ؟

---

(١) روى البخارى [٤٧٠٩] من حديث أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه قال : أتى رسول اللّه=

كأن الفطرة بطبيعتها نقية ؛ لأن اللبن الذى نشربه من أمهاتنا ، أو اللبن

= صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به بإيلياء بقدحين من خمر ولبن . فنظر إليهما ، فأخذ اللبن . قال جبريل : الحمد لله الذى هداك للفطرة ، لو أخذت الخمر غوت أمتك .

وأخرج [٣٨٨٧] من حديث مالك بن صعصعة : « ثم رفع إلى البيت المعمور . ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن ، وإناء من عسل ، فأخذت اللبن ، فقال : هى الفطرة التى أنت عليها وأمتك . . » .

وعنده [٥٦١٠] عن شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك معلقًا بصيغة الجزم ، ووصله أبو عوانة والإسماعيلى والطبرانى فى الصغير ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رُفِعَتْ إليَّ السدرة ، فإذا أربعة أنهار : نهران ظاهران ونهران باطنان ، فأما الظاهران فالنيل والفرات ، وأما الباطنان فنهران فى الجنة . فأتيت بثلاثة أقداح : قدح فيه لبن وقدح فيه عسل ، وقدح فيه خمر ؛ فأخذت الذى فيه اللبن ، فشربت ، فقيل لى : أصبت الفطرة أنت وأمتك » . قال البخارى : وقال هشام وسعيد وهمام عن قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الأنهار نحوه ، ولم يذكروا ثلاثة أقداح .

قال الحافظ رحمه الله : قال القرطبى : يحتمل أن يكون سبب تسمية اللبن فطرة ؛ لأنه أول شىء يدخل بطن المولود ويشق أمعاءه ، والسر فى ميل النبى صلى الله عليه وسلم إليه دون غيره ، لكونه كان مألوفًا له ؛ ولأنه لا ينشأ عن جنسه مفسدة .

وقد وقع فى « رواية قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة » أن إتيانه الآنية كان بعد وصوله إلى سدرة المنتهى « كما فى رواية » شعبة عن قتادة عن أنس . . إلا أن شعبة لم يذكر فى الإسناد مالك بن صعصعة « رغم موافقته لروايته » .

وفى حديث أبى هريرة عند ابن عائذ فى حديث المعراج بعد ذكر إبراهيم قال : « ثم انطلقنا ، فإذا نحن بثلاثة آنية مغطاة ، فقال جبريل : يا محمد ، ألا تشرب مماسقاك ربك ؟ فتناولت إحداها ، فإذا هو عسل ، فشربت منه قليلاً ، ثم تناولت الآخر ، فإذا هو لبن ، فشربت منه حتى رويت ، فقال : ألا تشرب من الثالث ؟ قلت : قد رويت . قال : وفقك الله » .

وفى رواية البزار من هذا الوجه ، أن الثالث كان خمرًا ، لكن وقع عنده أن ذلك كان ببيت المقدس ، وأن الأول كان ماء ، ولم يذكر العسل . وفى حديث ابن عباس عند أحمد : « فلما أتى المسجد الأقصى ، قام يصلى ، فلما انصرف جيء بقدحين . فى أحدهما لبن وفى الآخر عسل ، فأخذ اللبن . . » الحديث .

وقد وقع عند مسلم من طريق ثابت عن أنس أيضًا : أن إتيانه بالآنية كان ببيت المقدس ، قبل المعراج ، ولفظه : ثم دخلت المسجد ، فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت ، فجاء جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فأخذت اللبن ، فقال جبريل : أخذت الفطرة ، ثم عرج إلى السماء . =

الذى نشربه مثلاً من الأنعام التى خلقها الله لنا ، لا صنعة للإنسان فيه أبدا !! إذن . . إننا نشربه كما ينزل ، فهذه هي الفطرة ، لكن فى الخمر

= وفي حديث شداد بن أوس : « فصلّيت من المسجد حيث شاء الله ، وأخذنى من العطش أشد ما أخذنى ، فأتيت بإناءين : أحدهما لبن والآخر عسل ، فعدلت بينهما ، ثم هدانى الله فأخذت اللبن ، فقال شيخ بين يدى - يعنى لجبريل - أخذ صاحبك الفطرة » .

وفي حديث أبى سعيد عند ابن إسحاق فى قصة الإسراء : « فصلى بهم - يعنى بالأنبياء - ثم أتى بثلاثة آنية : إناء فيه لبن ، وإناء فيه خمر ، وإناء فيه ماء ، فأخذت اللبن . . » . الحديث . وفى مرسل الحسن عنده نحوه ، لكن لم يذكر إناء الماء .

ووقع بيان مكان عرض الآنية فى رواية سعيد بن المسيب عن أبى هريرة عند البخارى ، ولفظه : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به بإيلياء بإناء فيه خمر ، وإناء فيه لبن ، فنظر إليهما ، فأخذ اللبن ، فقال له جبريل : « الحمد لله الذى هداك للفطرة ، لو أخذت الخمر غوت أمتك »[(١)] . وهو عند مسلم .

وفي رواية عبد الرحمن بن هاشم بن عتبة عن أنس عند البيهقى : « فعرض عليه الماء والخمر واللبن ، فأخذ اللبن ، فقال له جبريل : أصبت الفطرة ، ولو شربت الماء لغرقت ، وغرقت أمتك ، ولو شربت الخمر لغويت ، وغوت أمتك »[(٢)] .

ويجمع بين هذا الاختلاف ، إما بحمل « ثم » على غير بابها من الترتيب ، وإنما هي بمعنى الواو هنا ، وإما بوقوع عرض الآنية مرتين : مرة عند فراغه من الصلاة ببيت المقدس ، وسببه ما وقع له من العطش ، وسببه عند وصوله إلى سدرة المنتهى رؤية الأنهار الأربعة .

أما الاختلاف فى عدد الآنية وما فيها ، فيحمل على أن بعض الرواة ذكر ما لم يذكره الآخر ، ومجموعها أربعة آنية ، فيها أربعة أشياء ، من الأنهار الأربعة التى رآها تخرج من أصل سدرة المنتهى .

ووقع فى حديث أبى هريرة عند الطبرى ، لما ذكر سدرة المنتهى : « يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن ، ومن لبن لم يتغير طعمه ، ومن خمرة لذة للشاربين ، ومن عسل مصفًى »[(٣)] فلعله عرض عليه من كل نهر إناء . وجاء عن كعب : أن نهر العسل نهر النيل ، ونهر اللبن نهر جيحان ، ونهر الخمر نهر الفرات ، ونهر الماء سيحان ، والله أعلم .

فتح البارى [٧/ ٦١٧، ٦١٨] . =

---

(١) أخرجه البخارى [٤٧٠٩] واللفظ له ، ومسلم [١٦٨] .

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة [٢/ ٣٦٠] .

(٣) ذكره الطبرى فى تفسيره [٢٧/ ٥٤] .

نحن نأخذ رزقاً من الرزق الحسن ، كالعنب مثلاً ، وبعد ذلك نأتى فنتلفه حين نخمّره ونجعله ينتن ويتحلل ، إذن .. نحن قد أخرجناه عن فطرته .

لذلك حينما يعرض القرآن ذلك يأتى بالحيثيات . كان العرب يشربون الخمر ويقولون : « سَكَر » ، يقول اللّه تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ [النحل : ٦٧] صحيح أنهم يأخذون منه ﴿ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ تأمل قوله تعالى : ﴿ وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ فحينما جاء بالرزق وصفه بالحسن ، وفى قوله : ﴿ سَكَرًا ﴾ سكت عنه ؛ لأنه غير حسن ، ولو قال : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً أحسن » لكان السكر أصبح فيه شىء من الحسن ، لكنه أتى بكلمة ﴿ حَسَنًا ﴾ حتى تكون مقابلة للقبح .

إذن .. فقول جبريل عليه السلام لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « أصبت الفطرة » أى : إنك لم تأخذ نعمة من نعم اللّه سبحانه وتعالى ، وأدخلت عليها عملية إفساد . خذ النعمة وأدخل عليها عملية إصلاح ، كاللحم النيئ مثلا : علينا إنضاجه ، والخضار أيضا : علينا طهوه ، لكن أن تأخذ عنبا وتضعه فى برميل حتى يتعفن ويتخمر ، هنا تكون قد أخرجته عن طبيعته وعن فطرته . إن ذلك معنى « أصبت الفطرة » .

= قال ابن المنير : لم يذكر السر فى عدوله عن العسل إلى اللبن ، كما ذكر السر فى عدوله عن الخمر ، ولعل السر فى ذلك كون اللبن أنفع ، وبه يشتد العظم وينبت اللحم ، وهو بمجرده قوت ، ولا يدخل فى السرف بوجه ، وهو أقرب إلى الزهد ، ولا منافاة بينه وبين الورع بوجه ، والعسل وإن كان حلالاً ، لكنه من المستلذّات التى قد يخشى على صاحبها أن يندرج فى قوله تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ ﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

قال الحافظ ابن حجر : ويحتمل أن يكون السر فيه ما وقع فى بعض طرق الإسراء ، أنه صلى اللّه عليه وسلم عطش - كما تقدم - فأتى بالأقداح ، فآثر اللبن دون غيره ؛ لما فيه من حصول حاجته دون الخمر والعسل ، فهذا هو السبب الأصلى فى إيثار اللبن ، وصادف مع ذلك رجحانه عليهما من عدة جهات . قال ابن المنير : ولا يعكر على ما ذكرته أنه صلى اللّه عليه وسلم كان يحب الحلوى والعسل ؛ لأنه إنما كان يحبه مقتصدًا فى تناوله ، لا فى جعله ديدنًا ولا تنطعًا .

فتح البارى [١١/ ٢٠٣] .

ولماذا هذا المرئى ؟ قالوا : لأن العقل هو مناط التكليف من اللّه سبحانه وتعالى ، والخمر جاءت لتستر العقل ؛ لأنه المدخل لتنفيذ أوامر اللّه سبحانه ، فالمجنون لا يكلفه اللّه سبحانه وتعالى ؛ لأن آلة الاختيار بين الأبدال[١] لديه معطلة . ومعنى عَقَل : أن يختار بين أبدال ، فإذا كان أمر لا بديل له ، فلا عمل للعقل فيه ، وما دام وجد الاختيار بين الأبدال ، فلا بد أن يكون العقل موجودا سليمًا ، ومقاييسه صادقة ؛ وذلك حتى تختار البديل الحسن وهو « الخير » ، ولا تختار البديل القبيح وهو « الشر » . إن الإنسان الذى يشرب الخمر إنما هو يغيب عقله عن الواقع الذى يعيشه . فكأنه عمد إلى النعمةِ الكبرى ، ومنفذِه إلى الإيمان باللّه سبحانه وتعالى ، ومناط تلقى التكليف من اللّه سبحانه وتعالى ، فعطله عن أداء المهمة التى خلقه اللّه تعالى لها .

وكل المرائى التى بعدها ، تستلزم وجود العقل التكليفي فيها ، فالجهاد والزكاة والصلاة ، كل هذه فرائض لها أحكامها وشروطها .

فكأن الحق سبحانه وتعالى أراد بالمنظر الأول أن يلفتنا إلى أن الفطرة طبيعتها سليمة ، فلا تفسدوها أنتم بتصرفاتكم . فهذا اللبن صافٍ صفاء الفطرة ، والخمر أنتم أفسدتموها بصنعتكم فيها ، فقد تدخلتم فيها ببشريتكم ، ولذلك أفسدتموها . فبعد أن كانت نعمة اللّه سبحانه وتعالى سليمة ، جعلتموها فاسدة .

ويجب أن نلتفت إلى أمرٍ خطر نغفل جميعًا عنه ، وهو أن اللّه سبحانه وتعالى خلق لنا العقل ؛ حتى نختار به بين الأبدال ، فإذا أتيتَ أنتَ وسترته بالخمر ، فتكون رددت على اللّه سبحانه وتعالى نعمته الكبرى عليك ، والتى قد تميَّزت بها عن سائر الخلق .

قد نجد الإنسان الذى يفعل ذلك يقول : إننى أستر همومى وأحزانى ،

---

(١) البديل : البدل . وَبَدلَ الشىء : غيَّره . ابن سيده : بِذل الشىء وبَدَله وبَدِيله : الخَلَف منه . والجمع : أبدال .

لسان العرب [١١/٤٨] .

ولكن الرد عليه يكون بأن نقول له : ليس حل المشاكل فى الهروب منها ، إنما يكمن حلّها فى أن تواجهها . فالحق لا يريد منك أن تنسى مشاكلك ، وتهرب منها وتسترها بالخمر ، ولكن واجهها بعقلك المؤمن . وما دمت ستواجهها بعقلك ، فلابد أن تحافظ على هذا العقل ؛ لكي يكون سليمًا قادرًا على حلّها ، وذلك بأن تمنع عنه أي شيء يطمس قانون اختيار الأبدال فيه . فهذا هو السبب فى أن ذلك هو أول منظر من المناظر التى رآها النبى صلى اللّه عليه وسلم واللّه تعالى أعلم .

وبعد ذلك مثلا نجد منظرا آخر ، وهذا المنظر الآخر : أنه وجد قوماً يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم ، وتتكرر هذه العملية عدة مرات! فسأل جبريل من هؤلاء ؟ قال : المجاهدون فى سبيل اللّه سبحانه وتعالى ؛ لأن الجهاد فى سبيل اللّه سبحانه وتعالى ، هو الوسيلة الناقلة لهدى اللّه سبحانه وتعالى إلى خلقه . فالجهاد فى سبيله هو : الانتشار بالدعوة المنهجية التى جاءت من اللّه سبحانه وتعالى إلى الناس كى يهتدوا إليها ، والعمل على إزالة المعوقات التى تصد الناس عن الإيمان باللّه الواحد الأحد .

إذن . . فلابد لهؤلاء المجاهدين أن تكون لهم ثمرات متعددة ،ولماذا الثمرات المتعددة ؟ لأنهم يجودون بأموالهم ويجودون بأرواحهم . فالذى يجود بماله وبروحه فى سبيل اللّه سبحانه وتعالى ، نجد اللّه سبحانه وتعالى يضاعف له الأجر أضعافًا مضاعفة .

إذن . . فالرسول صلى اللّه عليه وسلم حينما أراه اللّه سبحانه وتعالى هذه الصورة ، فقد أراه إياها ؛ ليوضح هذه الحقيقة للذين يجاهدون فى سبيل اللّه سبحانه وتعالى ، ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ : ٣٩] . ولا شك أن الناس يجودون بالأشياء ؛ طمعًا فيما تأتى به من الخير . فالفلاّح مثلاً يكون عنده جوالان من القمح ، وعندما تأتى أيام الزرع يأخذ جوالاً مما عنده ، فينقص ما عنده جوالاً ، وبعد ذلك يطرحه فى الأرض ، لكن الجوال الذى طرحه فى الأرض سيزيد له عشرات الأجولة بعد ذلك ، وإن الحبة من القمح ستأتى له بحبات كثيرة .

فإذا كان ذلك عطاء الأرض الصمّاء ، التى هي خلق من خلق اللّه سبحانه وتعالى ، فكيف يكون عطاء اللّه سبحانه وتعالى ؟!

إذن . . فاللّه تعالى يؤنسنى بالأمر المادى ، ولذلك فإذا جُذتَ أيها المجاهد بمالك ونفسك ، فذلك كله عند اللّه سبحانه وتعالى يضاعفه لك ، وإذا كانت الأعمال بنتائجها ، فنتيجة هذا هو النفع العام لك .

وبعد ذلك يُرِى اللّه سبحانه وتعالى رسوله صلى اللّه عليه وسلم منظرًا آخر وهو : الدنيا . ونحن نعرف أنها زينة وزخارف ولهو ولعب ، وذلك فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ [الحديد : ٢٠] ، فاللّه سبحانه وتعالى أراه هذا المنظر . منظر الدنيا . بأنها امرأة عجوز ، وعليها من كل زينة . فقال له : ما هذه يا جبريل ؟ قال : « لم يبق من عمر الدنيا ، إلا ما بقى من عمر هذه »[(١)] . والرسول صلى اللّه عليه وسلم يقول : « بُعثت أنا والساعة هكذا »[(٢)] ولم يبق من عمر الدنيا إلا كما بقى من عمر هذه المرأة ، فإذا كان عمرها هذا ، فلماذا تشغلون أنفسكم بها هذا الشغل الكبير ؟ أعطوها على قدر عمرها[(٣)] .

---

(١) روى ابن جرير الطبرى بسنده عن أنس بن مالك ، قال : لما جاء جبريل عليه السلام بالبراق إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فكأنها ضربت بذنبها ، فقال لها : « مه يا براق ، فواللّه ما ركبك مثله . فسار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فإذا هو بعجوز ناءٍ عن الطريق ؛ أى : على جنب الطريق . فقال : « ما هذه يا جبريل ؟ قال : سر يا محمد فسار ما شاء اللّه أن يسير . . » ، « . . ثم قال له جبريل : أما العجوز التى رأيت على جانب الطريق ، فلم يبق من الدنيا إلا بقدر ما بقى من عمر تلك العجوز . . . » .
تفسير الطبرى [١٥/٦] .

(٢) رواه مسلم [٢٩٥٠/ ١٣٢] عن أنس أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : « . . . وذكر الحديث وقرن شعبة بين إصبعيه المسبحة والوسطى » .
وعن أنس رضى اللّه عنه ، أن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال : « بعثت أنا والساعة كهاتين »
أخرجه البخارى [٦٥٠٣، ٦٥٠٤، ٦٥٠٥] ، ومسلم [٢٩٥١/ ١٣٣، ١٣٥] .

(٣) عن عبد اللّه بن مسعود قال : اضطجع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على حصير ، فأثّر فى جنبه ، فلما استيقظ جعلتُ أمسح جنبه ، قلت : يا رسول اللّه ، ألا آذَنْتَنَا حتى نبسط =

وإذا فرضنا أنه بقى من عمر الدنيا الكثير فهذا الكثير لغيرك ، ما حظّك أنت فيه ؟ إذا قست الدنيا بعمرك أيضاً ، وجدت أنها بقيت دنيا للكل ، ولكن لخلق غيرك ، فمهما طال أمدها ، حتى ولو كان قد بقى فى عمرها مليون سنة مثلاً ، فإنها لن تمكث المليون سنة لك .

إذن . . يجب أن تقيس الدنيا بعمرك أنت فيها ، فإذا كان متوسط عمر الإنسان « ستين سنة » أو « سبعين سنة » ، فإذا ضحّى الإنسان بهذه السنين فماذا تكون النتيجة ؟ النتيجة أننى سأضحى بشىء محدود ، لكن فى غاية غير محدودة وهى الآخرة ، هذه هي أول مقارنة .

أما الثانية فنقول : إن السبعين سنة ليست متيقَّنة ، فقد يموت الإنسان وهو صغير .

فوجودى وعمرى فى الحياة الدنيا غير متيقَّن ، ولكن الآخرة هي المتيقَّن .

وأما نعيمى فى دنياى فعلى قدر من ؟ إنه على قدر إمكاناتى ، وعلى قدر جهدى فى الأخذ بالأسباب ، وعلى قدر تصوراتى فى النعيم . أما نعيمى فى الآخرة ، فهو بقدرة القادر سبحانه وتعالى ، وعطائه فى النعيم .

إذن . . حينما نأتى ونقارن عمر الدنيا بعمر الإنسان ، سنجد أن المقارنة ليست فى صف الإنسان .

فهو . . محدود هنا ، وغير محدود فى الآخرة .

غير متيقّن هنا ، ومتيقّن فى الآخرة .

= لك على الحصير شيئًا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما لى وما للدنيا ؟ ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » .

رواه أحمد فى المسند [١/ ٣٩١] ، وصححه الشيخ شاكر برقم [٣٧٠٩] ، والترمذى [٢٣٧٧] واللفظ له ، وابن ماجه [٤١٠٩] وصححه الألبانى .

وروى البخارى [٦٤١٦] عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبى فقال : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » . وكان ابن عمر يقول : « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك » .

النعيم الدنيوى على قدر إمكاناتى ، ونعيم الآخرة بقدرة اللّه سبحانه .

فإذا كانت الدنيا عجوزًا ،ولم يبق منها إلا هذا ، ولو بالنسبة إلى كل إنسان ، فما الذى يجعلنى أجعل الدنيا هي كل همّى[١] ؟ هذا هو أحد المرائى التى رآها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

وهناك منظر آخر : فالرسول صلى اللّه عليه وسلم رأى هناك أناسًا ، والمقص يقصّ شفاههم وألسنتهم ، لماذا ؟ لأن الشفاه واللسان ، هما الأداتان اللتان تتعاونان فى إخراج الكلام . فقال لجبريل عليه السلام : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : « هم خطباء الفتنة » !! ومن هم خطباء الفتنة ؟ قال : الذين يقولون ما لا يفعلون ، فألسنتهم أحلى من العسل ، وفعلهم كالأسى . ويحدثون الفتنة ؛ لأن آفة كل دعوة هم : خطباء الفتنة فيها ، يقولون كلامًا يسمعه الناس ،ولهم فعل يخالف ما يقولون ، فيقارن الناس فعلهم بقولهم ، فيرون كلامًا يقال ، وفعلاً يخالف ما يقال .

وإذا انفصلت الكلمة عن « السلوك » انقلبت المناهج كلها .

بمعنى : إذا جلست أشرح لابنى مضارّ الكذب ، وأحدّثه عن الصدق يوميا ، فإذا جاء يوم وطلبنى شخص وأنا بالبيت ، وكان ردّى : قولوا له : إننى غير موجود ، هذا الفعل يهدم كل شىء من قولى ، وبعد ذلك يستقر الكذب فى وجدان الابن[٢] .

---

(١) عن أنس بن مالك رضى اللّه تعالى عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « من كانت الآخرة همّه جعل اللّه غناه فى قلبه وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيا همّه جعل اللّه فقره بين عينيه ، وفرّق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدّر له » . رواه الترمذى [٢٤٦٥] ، وابن ماجه [٤١٠٥] وصححه الألبانى .

(٢) الكذب فعل قبيح والمؤمن لا يكذب ، كما فى الحديث ، عن عبد اللّه رضى اللّه عنه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال : « إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صدّيقًا ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند اللّه كذّابًا » .

رواه البخارى [٦٠٩٤] واللفظ له ، ومسلم [٢٦٠٧/ ١٠٣] . =

إذن . . إن هناك كلامًا يُقال ، وفعلاً يُفعل مضادًا له ؛ وبذلك تكون الكلمة قد انفصلت عن السلوك .

وأيضا خطباء الفتنة هم الذين يبررون للناس تصرفاتهم ، فيجعلون الدين مبررا لتصرفاتهم . بمعنى : أن التصرف يكون أولاً ، ثم يطلبون له مبررًا من الدين ، والدين ليس تبريرًا ، ولكنه دين تدبير للمسائل . هو الذى يدبّر الأمر أولاً ، فلا تقل : إن المجتمع حلّت به البلوى ، وبعد ذلك تحاول أن تجد حلاً من الدين لبلاء المجتمع ، فكأنك ستهبط بمنهج اللّه إلى مستوى أفعال الناس ، وهذا لا يصح فالأصل أن منهج اللّه جاء ليرفع الناس ، لا ليهبط إلى مستواهم . ولذلك تجد فى كلام اللّه سبحانه وتعالى ، الدعوة إلى السمو والعلو .

يقول سبحانه : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا ﴾ [آل عمران : ٦٤] ﴿ تَعَالَوْا ﴾ معناها : أقبلوا ، نعم هي تحمل هذا المعنى ، لكن ﴿ تَعَالَوْا ﴾ هنا معناها : ارتفعوا إلى المستوى الأعلى ؛ لتأخذوا المنهج من اللّه سبحانه وتعالى .

= وعن أبى هريرة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

رواه البخارى [٣٣، ٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٦٥] ، ومسلم [٥٩] .

وعن سمرة بن جندب رضى اللّه عنه قال : قال النبى صلى اللّه عليه وسلم : « رأيت رجلين أتيانى قالا الذى رأيته يشقّ شِدْقه فكذّاب يكذب بالكذبة تُحمل عنه حتى تبلغ الآفاق ، فيُصنع به إلى يوم القيامة » . رواه البخارى [٦٠٩٦] .

وعن عبد اللّه بن عمرو أن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال : « أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النِّفاق حتى يدعها : إذا ائتُمن خان ، وإذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

رواه البخارى [٣٤، ٢٤٥٩، ٣١٧٨] واللفظ له ، ومسلم [٥٨] .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يخونه ، ولا يكذبه ولا يخذله ، كلّ المسلم على المسلم حرام ، عِرضه وماله ودمه ، التقوى هاهنا ، بحسب امرئ من الشر أن يحتقر أخاه المسلم » . رواه الترمذى [١٩٢٧] وقال : حديث حسن غريب . وصححه الألبانى .

لاتتركوا أنفسكم فى حضيض مدنيّتكم المزعومة ، ولنا أن نعلم أن أي مدنية لا تحرسها العقيدة فهي مدنيّة زائفة زائلة .

إذن . . خطباء الفتنة ، هم الذين يقولون مالا يفعلون ، أو هم الذين يبررون لكل منحرف انحرافه كما أنهم يُلبسون الحق بالباطل .

وبعد ذلك تأتى المرائى الأخرى ، وهى مركّزة حول معانٍ تتعلق بالمال وتتعلق بالأعراض وتتعلق بالكلمة .

أما الذى يتعلق بالمال ، فإن الحق سبحانه وتعالى عرض على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم آية . هذه الآية : أنه رأى قومًا يسبحون فى بحر من دم ، ثم مع ذلك يلقمون الحجارة . فسأل عنهم جبريل عليه السلام ، فقال : هؤلاء أكلة الربا[1] .

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] .

قال الشوكانى : الربا فى اللغة : الزيادة مطلقاً ، يقال : ربا الشيء يربو : إذا زاد . وفي الشرع يطلق على شيئين : ربا الفضل ، وربا النسيئة ، حسبما هو مفصّل فى كتب الفروع . وغالب ما كانت تفعله الجاهلية ، أنه إذا حلّ أجل الدين ، قال من هو له ، لمن هو عليه : أتقضى أم تربى ؟ فإذا لم يقض زاد مقدارا فى المال الذى عليه ، وأخّر له الأجل إلى حين . وهذا حرام بالاتفاق . وقياس كتابة الربا بالياء للكسرة فى أوله ، وقد كتبوه فى المصحف بالواو . قال فى الكشاف : على لغة مَنْ يفخم ، كما كتبت الصلاة والزكاة ، وزيدت الألف بعدها تشبيها بواو الجمع .

قلت : وهذا مجرد اصطلاح لا يلزم المشى عليه ، فإن هذه النقوش الكتابية أمور اصطلاحية ، لا يشاحح[1] فى مثلها ، إلا فيما كان يدل به منها على الحرف الذى كان فى أصل الكلمة ونحوه ، كما هو مقرر فى مباحث الخط من علم الصرف . وعلى كل حال فرسم الكلمة ، وجعل نقشها الكتابى على ما يقتضيه اللفظ بها هو الأولى فما كان فى النطق ألفا كالصلاة والزكاة ونحوهما ، كان الأولى فى رسمه أن يكون كذلك . وكون أصل هذه الألف واوا أو ياء ، لا يخفى على من يعرف علم الصرف . وهذه النقوش ليست إلا لفهم =

---

(١) تَشَاحُّوا فى الأمر وعليه : شحّ به بعضهم على بعض ، وتبادروا إليه حذر فَوته ، ويقال : هما يتشاحّان على أمر إذا تنازعاه ، لا يريد كل واحد منهما أن يفوته .

لسان العرب [٢/ ٤٩٥] .

وكونهم يسبحون فى بركة من الدم ، نحن نعلم أن الدم يفيد وينفع

= اللفظ الذى يدل بها عليه ، كيف هو فى نطق من ينطق به ، لا لتفهيم أن أصل الكلمة كذا ، مما لا يجرى به النطق . فاعرف هذا ولا تشتغل بما يعتبره كثير من أهل العلم فى هذه النقوش ، ويلزمون به أنفسهم ، ويعيبون من خالفه ، فإن ذلك من المشاححة فى الأمور الاصطلاحية ، التى لا تلزم أحدا أن يتقيد بها . فعليك بأن ترسم هذه النقوش على ما يلفظ به اللافظ عند قراءتها ، فإنه الأمر المطلوب من وضعها والتواضع عليها ، وليس الأمر المطلوب منها ، أن تكون دالة على ما هو أصل الكلمة ، التى يتلفظ بها المتلفظ ، مما لا يجرى فى لفظه الآن . فلا تغتر بما يروى عن سيبويه ، ونحاة البصرة أن يكتب الربا بالواو ؛ لأنه يقول فى تثنيته ربوان . وقال الكوفيون : يكتب بالياء وتثنيته ربيان . قال الزجاج : ما رأيت خطأ أقبح من هذا ولا أشنع ، لا يكفيهم الخطأ فى الخط حتى يخطئوا فى التثنية وهم يقرأون : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ .

وليس المراد بقوله هنا : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ اختصاص هذا الوعيد بمن يأكله ، بل هو عام لكل من يعامل بالربا ، يأخذه ويعطيه ، وإنما خص الآكل ؛ لزيادة التشنيع على فاعله ، ولكونه هو الغرض الأهم . فإن آخذ الربا إنما أخذه للأكل .

قوله : ﴿ لَا يَقُومُونَ ﴾ أى : يوم القيامة ، كما تدل عليه قراءة ابن مسعود : ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ يوم القيامة . أخرجه عبد بن حميد ، وابن أبى حاتم[1] ، وبهذا فسره جمهور المفسرين ، قالوا : إنه يبعث كالمجنون عقوبة له ، وتمقيتا عند أهل المحشر . وقيل : إن المراد تشبيه من يحرص فى تجارته ، فيجمع ماله من الربا بقيام المجنون ؛ لأن الحرص والطمع والرغبة فى الجمع ، قد استفزته حتى صار شبيها فى حركته بالمجنون ، كما يقال لمن يسرع فى مشيه ويضطرب فى حركاته : إنه قد جُن ، ومنه قول الأعشى فى ناقته :

وتصبح عن غِبِّ السُّرى وكأنها ... ألَمَّ بها من طَائِف الجنِّ أوْلَقُ[2]

فجعلها بسرعة مشيها ونشاطها ، كالمجنون .

قوله : ﴿ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ أى : إلا قياما كقيام الذى يتخبطه ، والخبط : الضرب بغير استواء ، كخبط العشواء وهو المصروع . والمس : الجنون ، والأمس : المجنون ، وكذلك الأولق . وهو متعلق بقوله : ﴿ لَا يَقُومُونَ ﴾ أى : لا =

(١) ذكره ابن أبى حاتم فى تفسيره [٢٨٨٧] .

(٢) البيت من قصيدة للأعشى ، بعنوان « مدح المحلّق » ، وهى قافية من بحر « الطويل » وللبيت رواية أخرى بالديوان :

وتصبح من غِبِّ السرى وكأنها ... ألـمّ بـهـا مـن طـائـف الـجـن أولـق

والسُّرى : السير ليلاً . الأولق : الجنون .

ديوان الأعشى [١٨١] .

حين يكون ساريًا فى الشرايين والأوردة ، ولكنه حين يخرج للهواء يتجلط

= يقومون من المس الذى بهم ﴿ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أو متعلق بـ ﴿ يَقُومُ ﴾ . وفي الآية دليل على فساد قول من قال : إن الصرع لايكون من جهة الجن ، وزعم أنه من فعل الطبائع ، وقال : إن الآية خارجة على ما كانت العرب تزعمه من أن الشيطان يصرع الإنسان ، وليس بصحيح ، وإن الشيطان لا يسلك فى الإنسان ، ولا يكون من مس . وقد استعاذ النبى صلى اللّه عليه وسلم من أن يتخبطه الشيطان ؛ كما أخرجه النسائى وغيره (١) .

قوله : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من حالهم وعقوبتهم ، بسبب قولهم : ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا ﴾ أى : أنهم جعلوا البيع والربا شيئًا واحدًا . وإنما شبهوا البيع بالربا مبالغة ، بجعلهم الربا أصلاً ، والبيع فرعاً ، أى إنما البيع بلا زيادة عند حلول الأجل ، كالبيع بزيادة عند حلوله ، فإن العرب كانت لا تعرف ربا إلا ذلك . فرد اللّه سبحانه عليهم بقوله : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا ﴾ أي أن اللّه أحل البيع ، وحرم نوعا من أنواعه ، وهو البيع المشتمل على الربا . والبيع مصدر باع يبيع ، أي دفع عوضاً وأخذ معوضا ، والجملة بيانية لا محل لها من الإعراب .

قوله : ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أي من بلغته موعظة من اللّه ، من المواعظ التى اشتملت عليها الأوامر والنواهى ، ومنها ما وقع هنا من النهي عن الربا ﴿ فَٱنتَهَىٰ ﴾ أي فامتثل النهي الذى جاءه ، وانزجر عن المنهي عنه ، وهو معطوف . أي قوله : ﴿ فَٱنتَهَىٰ ﴾ على قوله : ﴿ جَآءَهُۥ ﴾ .

وقوله : ﴿ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ متعلق بقوله : ﴿ جَآءَهُۥ ﴾ أو بمحذوف وقع صفة لموعظة ، أي كائنة ﴿ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴾ أي ما تقدم منه من الربا لا يؤاخذ به ؛ لأنه فعله قبل أن يبلغه تحريم الربا ، أو قبل أن تنزل آية تحريم الربا .

وقوله : ﴿ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ قيل : الضمير عائد إلى الربا ، أي وأمر الربا إلى اللّه فى تحريمه على عباده ، واستمرار ذلك التحريم . وقيل : الضمير عائد إلى ماسلف ، أي أمره إلى اللّه فى العفو عنه ، وإسقاط التبعة فيه . وقيل الضمير يرجع إلى المُرْبِى (٢) ، أي أمر من عامل بالربا إلى اللّه فى تثبيته على الانتهاء ، أو الرجوع إلى المعصية .

﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ إلى أكل الربا والمعاملة به : ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ والإشارة إلى ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ جمع أصحاب باعتبار معنى ﴿ وَمَنْ ﴾ . =

(١) عن أبى اليسر أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يدعو : « اللّهم إنى أعوذ بك من الهدم وأعوذ بك من التَّرَدِّي ، وأعوذ بك من الغرق ، والحرق ، والهرم ، وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت ، وأعوذ بك أن أموت فى سبيلك مدبرا ، وأعوذ بك أن أموت لديغًا » .

رواه أبو داود [١٥٥٢] واللفظ له ، والنسائى فى المجتبى [٨/ ٢٨٢، ٢٨٣] ، وصححه الألبانى .

(٢) المُربى : الذى يأتى الرّبا .

ويصبح شيئًا ثقيلاً ؛ لذلك فهو يثبط من يسبح فيه ، ومن المفترض أن الدم ينفع فى مكانه المخصص له لا أن يسبح الإنسان فيه ، ومع ذلك يلقم الحجارة .

إذن . . لم يغنِ الدم الذى يسبح فيه عن غذائه الأساسى ، بل هو قد استعاض عن الغذاء الأساسى الذى هو الدم بأن يلقم الحجارة . وذلك أمر طبيعى ؛ لأن ما معنى المراباة ؟ المراباة : أن تستغل فرصة عدم معْدَم ، وفقر فقير ؛ لتزيد أنت من مالك .

معنى ذلك أنك قد جعلت نفسك كل شىء ، وجعلت أنانيتك فى الانتفاع هي كل شىء ، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى جعل الأرض مباحة لجميع الناس ، يعملون فيها طاقاتهم المخلوقة للّه سبحانه وتعالى ، بعقولهم المخلوقة للّه . أي أنك تكدح فى المادة المخلوقة للّه ، بالفكر الذى خلقه اللّه ، وبالقوة والطاقة التى خلقها اللّه ، فلا أقل من أن تجعل اللّه مضاربًا معك ؛ بمعنى أن للّه ما خلق من مال ، ولك أنت العمل . بل أنت ليس لك عمل أنت لك فكر تخطط به من فعل اللّه ، وأرض تحصد فيها من خلق اللّه ، وطاقة وقوة تعمل بها من خلق اللّه ، وبعد ذلك تكتسب شيئا . فلا أقل من أن تتصدّق على المعْدَم ، الذى لا يجد القوة التى يعمل بها ، أو الذى لا يجد المجال ليعمل ، أو الذى لا يجد الفكر ليخطط . لا أقل من أن تعطيه شيئا من مال اللّه سبحانه وتعالى ، الذى آتاك إياه ، فكونك تستغل ضعف المعدم وفقره ؛ لتزداد أنت شيئًا من الغنى ، فهذا هو الظلم الفاحش .

إذن . . فاللّه سبحانه وتعالى ضرب مثلاً ؛ حتى يبين للناس أنهم بعملهم القبيح هذا لن يستفيدوا منه شيئًا ، وأنهم سيكسبون دماء لا لتجرى

= وقيل : إن معنى : ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ هو أن يعود إلى القول بـ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا ﴾ وأنه يكفر بذلك فيستحق الخلود . وعلى التقدير الأول يكون الخلود مستعارا ، على معنى المبالغة ، كما تقول العرب : مُلك خالد ، أى : طويل البقاء . والمصير إلى هذا التأويل ، واجب للأحاديث المتواترة ، القاضية بخروج الموحدين من النار .

فتح القدير [١/ ٣٧٠-٣٧٢] .

فى عروقهم ، ولكن ليسبحوا فيها ، فانظروا الذى يسبح فى الدم ، ما فائدته منه ؟! ومع ذلك غذاؤه الحقيقى أنه يلقم الحجارة . هذه صورة من صور الربا ، التى أراها اللَّه سبحانه وتعالى لرسوله صلى اللَّه عليه وسلم .

وبعد ذلك تكلم عن الأعراض ، والأعراض : هي المادة الشهية التى ينفذ منها الشيطان لكثير من خلق اللَّه سبحانه وتعالى ؛ لذا يزين عدو اللَّه الأموال للناس ؛ ليجمعوها حتى ولو كان ذلك بالباطل ؛ وأعراض الناس لينهشوا فيها .

إذن . . فالمال والعرض هما موضوع الفساد فى الأرض . ومن العجيب أن عقوبة الغيبة التى أراها الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى اللَّه عليه وسلم ، كانت فى ثلاث صور :

الأولى : رأى قومًا لهم أظفار من نحاس ، يمزقون بها وجوههم ، فسأل عنهم ، فقيل : الذين يغتابون الناس .

الثانية : رآهم يأخذون قطعا من لحومهم فيأكلونها .

الثالثة : رآهم يأخذون لحما منتنًا فيأكلونه .

ثلاثة مراءٍ ، هذه المرائى كانت لبيان فظاعة هذا الجرم ، الذى هو أن يغتاب الإنسان أخاه الإنسان ، وبعد ذلك كونه ميتة ، بمعنى أنه لو كان حيا كان يمكنه أن يدافع عن نفسه ، ولكن لأن الأمر غيبة ، ولا يستطيع المغتاب أن يرد عن نفسه ، كان كالميت الذى لا يستطيع أن يدافع عن نفسه .

وبعد ذلك صورة أخرى ، وهى : صورة الزنى . تلك الصورة البشعة ، أراها اللَّه سبحانه وتعالى لرسوله صلى اللَّه عليه وسلم فى صورة قوم أمامهم لحم طيب ، يتركون هذا اللحم الطيب ، ويذهبون إلى لحم خبيث نتن ، فسأل صلى اللَّه عليه وسلم عن ذلك ، فقال : الرجل تكون عنده المرأة الحلال فيتركها ، ويذهب إلى المرأة الحرام ، أو المرأة يكون عندها الرجل الحلال ، فتدعه ، وتذهب إلى الرجل الحرام .

وأيضًا صورة أخرى : وهى صورة الكلمة يقولها الإنسان ، ونحن نقرأ قول بعض الحكماء ، أو الأدباء : « أنا إن لم أتكلم بالكلمة ملكتها ، وإن

تكلمت بها ملكتنى » فحين أتكلم بها لا أقدر على ردها ثانية .

كذلك كان من بين المرائى التى رآها النبى صلى اللّه عليه وسلم ، رأى ثورًا عظيمًا قد خرج من جحر ، ويريد ذلك الثور أن يدخل الجحر مرة ثانية ، فلا يستطيع . فسأل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جبريل عليه السلام فقال : هذا مثل الرجل يقول الكلمة ، ثم يحاول أن يرجع فيها فلا يستطيع .

وبعد ذلك رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رجلاً يحمل حملاً لا يقدر عليه ، ومع ذلك يمد يده إلى شىء آخر ليحمله فوق حمله ، فسأل عن ذلك ، فقال : هؤلاء هم الذين يحملون الأمانات ،يعجزون عن أدائها ، ومع ذلك يثقلون ظهورهم بحمل جديد ، وهم غير قادرين على حمل ما معهم .

إن الغاية من تلك المرائى التى رآها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يعلم المؤمنين ، كيف يكون جزاء من يفعل ذلك ، وكيف تكون نتيجة هذه المحرمات وعاقبتها فيتخلوا عنها ولا يرتكبوها .

ومن المرائى التى رآها صلى اللّه عليه وسلم : رأى قوما يرضخون رؤوسهم بالحجارة ، وكلما رضخت عادت كما كانت ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : هؤلاء هم الذين يتكاسلون عن الصلاة[1] ، والظاهر لنا أنهم يضربون .

---

(١) ذكر البيهقى فى حديث الإسراء الطويل عن أبى هريرة عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه قال فى هذه الآية : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ قال : أتى بفرس فحمل عليه ، قال : كل خطوة منتهى أقصى بصره ، فسار وسار معه جبريل عليه السلام ، فأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال : يا جبريل! من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء المهاجرون[1] فى سبيل اللّه ، يضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ : ٣٩] .

ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم =

---

(١) هكذا وقع عند البيهقى ، وفى الدر المنثور [٥/١٩٩] : المجاهدون .

يضربون الرؤوس ؛ لأن التثاقل عن الصلاة يبدأ أول ما يبدأ من الرأس ؛ فإن الإنسان إذا ركّز طاقاته وكل إمكانياته بحيث يؤديها ، فإنه يؤديها مهما كانت ظروفه ، ومهما كانت شواغله ، ومهما كانت الموانع التى تمنعه . ولكن الإنسان يبرر لنفسه ترك الصلاة بأسلوب يختاره ، مثلاً الحرص على المصلحة ، ضيق الوقت ، عدم القدرة وأشياء من هذا القبيل .

= من ذلك شيء ، فقال : يا جبريل ! من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين تثاقل رؤوسهم عن الصلاة .

قال : ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الأنعام عن الضريع والزقوم ، ورضف جهنم وحجارتها ، قال : ما هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم ، وما ظلمهم الله ، وما الله بظلام للعبيد .

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم فى قدر نضج طيب ، ولحم آخر خبيث ، فجعلوا يأكلون من الخبيث ويدعون النضج الطيب ، فقال : يا جبريل ! من هؤلاء ؟ قال : هذا الذى يقوم وعنده امرأة حلالاً طيبًا فيأتى المرأة الخبيثة ، فتبيت معه حتى يصبح .

ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها شيء إلا قصعته يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٦] .

ثم مر على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها ، وهو يريد أن يزيد عليها ، قال : يا جبريل ! ما هذا ؟ قال : هذا رجل من أمتك عليه أمانة ، لا يستطيع أداءها ، وهو يزيد عليها . ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت ، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء ، قال : يا جبريل ! من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء خطب[1] الفتنة .

ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم[2] ، فجعل الثور[3] يريد أن يدخل من حيث خرج ولا يستطيع ، قال : ما هذا يا جبريل! قال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة فيندم عليها ، فيريد أن يردها ولا يستطيع ...» .

أخرجه البيهقى فى الدلائل [٢/ ٣٩٧-٣٩٩] ، وانظر الدر المنثور [٥/ ١٩٨-٢٠٠] ، وتفسير الطبرى [١٥/ ٦، ٧] ، وانظر هامش [ص ٥٣٣، ٥٣٤] من هذا الكتاب .

---

(١) هكذا بالأصل وهو خطأ ولعله « خطباء » .

وذهب أبو إسحاق إلى أن الخُطْبة عند العرب : الكلام المنثور المسجّع ونحوه .

ورجل خطيب : حسن الخُطبة ، وجمع الخطيب خطباء . [لسان العرب : ١/ ١٦٣] .

وقد ورد فى الدر المنثور [٥/ ٩٩١] ، وتفسير الطبرى [٧/ ٥١] : خطباء الفتنة .

(٢) و (٣) هكذا بالأصل ولعله خطأ من الطابع أو الناسخ ، وفى تفسير الطبرى [١٥/ ٧] والدر المنثور [٥/ ٩٩١] : ثور عظيم .

فكأن الفكرة التى توحى للإنسان بأن يتكاسل عن الصلاة ، إنما هي فكرة تنبت فى رأسه ، فالرأس الذى سوّل للإنسان أن يتكاسل عن أداء الصلاة ، هو الذى يستحق هذا الجزاء ، ويجب أن يرضخ بالحجارة . وليته يرضخ مرة وينتهى ويموت ، ولكن لا يفتر عنه ، ومعنى لا يفتر عنه : أي يعود ثانية ليضرب مرة أخرى[١] ، وهكذا ، فيبقى كذلك فى عذاب إلى ما شاء الله .

(١) يقول الراغب الأصفهانى : فتر : الفتور سكون بعد حِدَّة ، ولين بعد شِدَّة ، وضعف بعد قوة ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [المائدة : ١٩] أي سكون حال ، عن مجيء رسول الله .

وقوله : ﴿ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٠] أي لا يسكنون عن نشاطهم فى العبادة . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكل عالم شِرَّة ، ولكل شرة فترة ، فمن فتر إلى سنتى فقد نجا ، وإلا فقد هلك » فقوله : لكل شِرَّة فترة ، فإشارة إلى ما قيل : للباطل جولة ثم يضمحلّ ، وللحق دولة لا تذلُّ ولا تَقِلُّ . وقوله : « من فتر إلى سنتى »[٢] أي سكن إليها ، والطرف الفاتر فيه ضعف مستحسن .

مفردات ألفاظ القرآن [٣٨٥] .

(١) جزء من حديث رواه أحمد فى المسند [٢/١٥٨] عن عبد الله بن عمرو بلفظ : « فإن لكل عابد شِرَّة ، ولكل شِرة فِترة ، فإما إلى سُنَّة ، وإما إلى بدعة ، فمن كانت فترته إلى سُنَّة فقد اهتدي ، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك » وصححه الشيخ شاكر رقم [٦٤٧٧] .

الأنهار التى رآها النبى صلى الله عليه وسلم

ورد ذكرها فيما أخرجه البخارى من حديث قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة ، وفيه : « قال : هذه سدرة المنتهى . وإذا أربعة أنهار : نهران ظاهران ونهران باطنان .

فقلت : ما هذان ياجبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات .

وفى لفظ آخر عن مالك : « فى أصلها- يعنى سدرة المنتهى - أربعة أنهار . . »الحديث .

ووقع فى رواية شريك : « فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان . فقال : ما هذان النهران يا جبريل ؟ قال : هذان النيل والفرات ، عنصرهما ، ثم مضى فى السماء فإذا بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فضرب يده فإذا هو مسك أذفر . قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : الكوثر الذى خبأ لك ربك . . » الحديث .

قال الحافظ رحمه الله : ووقع فى « صحيح مسلم » من حديث أبى هريرة : « أربعة أنهار فى الجنة : النيل والفرات وسيحان وجيحان » . فيحتمل أن تكون سدرة المنتهى مغروسة فى الجنة ، والأنهار تخرج من تحتها ، فيصح أنها من الجنة .

قال ابن أبى جمرة : فيه أن الباطن أجل من الظاهر ؛ لأن الباطن جعل فى دار البقاء ، والظاهر جعل فى دار الفناء ، ومن ثَمَّ كان الاعتماد على ما فى الباطن كما قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[1] .

وقوله : « وأما الظاهران فالنيل والفرات » : وقع فى رواية شريك : أنه رأى فى السماء الدنيا نهرين يطردان ، فقال له جبريل : هما النيل والفرات عنصرهما - والعنصر بضم العين والصاد المهملتين بينهما نون ساكنة : هو الأصل - والجمع بينهما ، أنه رأى النهرين عند سدرة المنتهى ، مع نهرى الجنة ، ورآهما فى سماء الدنيا دون نهرى الجنة ، وأراد بالعنصر عنصر امتيازهما بسماء الدنيا ، كذا قال ابن دحية . ووقع فى حديث شريك أيضًا : « ومضى به يرقى السماء ، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فضرب بيده ، فإذا هو مسك أذفر ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى خبأ لك ربك » . ووقع فى رواية يزيد بن أبى مالك عن أنس عن ابن أبى حاتم : أنه بعد أن رأى إبراهيم قال : « ثم انطلق بى على ظهر السماء السابعة حتى انتهى إلى نهر عليه خيام اللؤلؤ =

(١) رواه مسلم [٢٥٦٤/ ٣٣] . من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

= والياقوت والزبرجد ، وعليه طير خضر ، أنعم طير رأيت . قال جبريل : هذا الكوثر الذى أعطاك الله ، فإذا فيه آنية الذهب والفضة يجرى على رضراض من الياقوت والزمرد ، ماؤه أشد بياضًا من اللبن . قال : فأخذت من آنيته ، فاغترفت من ذلك الماء فشربت ، فإذا هو أحلى من العسل وأشد رائحة من المسك » .

وفي حديث أبى سعيد : « فإذا فيها عين تجرى ، يقال لها السلسبيل ، فينشق منها نهران : أحدهما الكوثر ، والآخر يقال له : نهر الرحمة » . قلت : فيمكن أن يفسر بهما النهران الباطنان المذكوران فى حديث الباب . وكذا روى عن مقاتل قال : الباطنان : السلسبيل والكوثر .

وأما الحديث الذى أخرجه مسلم بلفظ : « سيحان وجيحان والنيل والفرات من أنهار الجنة »[1] ، فلا يغاير هذا ؛ لأن المراد به أن فى الأرض أربعة أنهار أصلها من الجنة ، وحينئذ لم يثبت لسيحون وجيحون أنهما ينبعان من أصل سدرة المنتهى ، فيمتاز النيل والفرات عليهما بذلك . وأما الباطنان المذكوران فى حديث الباب ، فهما سيحون وجيحون ، والله أعلم .

قال النووى : فى هذا الحديث أن أصل النيل والفرات من الجنة ، وأنهما يخرجان من أصل سدرة المنتهى ، ثم يسيران حيث شاء الله ، ثم ينزلان إلى الأرض ، ثم يسيران فيها ثم يخرجان منها ، وهذا لا يمنعه العقل ، وقد شهد به ظاهر الخبر ، فليعتمد ، وأما قول عياض : إن الحديث يدل على أن أصل سدرة المنتهى فى الأرض ، لكونه قال : إن النيل والفرات يخرجان من أصلها ، وهما بالمشاهدة يخرجان من الأرض ، فيلزم منه أن يكون أصل السدرة فى الأرض ، وهو متعقب : فإن المراد بكونهما يخرجان من أصلها غير خروجهما بالنبع من الأرض .

والحاصل أن أصلها فى الجنة ، وهما يخرجان أولا من أصلها ، ثم يسيران إلى أن يستقرا فى الأرض ، ثم ينبعان ، واستدل به على فضيلة ماء النيل والفرات ؛ لكون منبعهما من الجنة ، وكذا سيحان وجيحان .

قال القرطبى : لعل ترك ذكرهما فى حديث الإسراء ، لكونهما ليسا أصلاً برأسهما ، وإنما يحتمل أن يتفرعا عن النيل والفرات ، قال : وقيل : إنما أطلق على هذه الأنهار أنها من الجنة تشبيهًا لها بأنهار الجنة ، لما فيها من شدة العذوبة والحسن والبركة . والأول أولى ، والله أعلم .

ووقع من الزيادات فى قصة المعراج عند مسلم من طريق همام عن قتادة عن أنس رفعه : « بينا أنا أسير فى الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف ، وإذا طينه مسك أذفر ، =

(١) رواه مسلم [٢٨٣٩/ ٢٥] من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

= فقال جبريل : هذا الكوثر »[١] . وله من طريق شيبان عن قتادة عن أنس : لما عرج بالنبى صلى الله عليه وسلم . . فذكر نحوه[٢] .

وعند ابن أبى حاتم وابن عائذ من طريق يزيد بن أبى مالك عن أنس : « ثم انطلق حتى انتهى بى إلى الشجرة ، فغشينى من كل سحابة فيها من كل لون ، فتأخر جبريل ، وخررت ساجدًا » وفى حديث ابن مسعود عند مسلم : « وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته المقحمات »[٣] ، يعنى الكبائر . وفى هذه الرواية من الزيادة : « ثم انجلت عنى السحابة وأخذ بيدى جبريل ، فانصرفت سريعًا ، فأتيت على إبراهيم ، فلم يقل شيئًا ، ثم أتيت على موسى فقال : ما صنعت ؟ . . » الحديث .

وفيه أيضًا : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : « ما لى لم آت أهل سماء إلا رحّبوا وضحكوا إلىّ ، غير رجل واحد ، فسلمت عليه فرد على السلام ، ورحب بى ، ولم يضحك إلى ؟ قال : يا محمد ، ذاك مالك خازن جهنم ، لم يضحك منذ خلق ، ولو ضحك إلى أحد لضحك إليك » .

وفي حديث حذيفة عند أحمد والترمذى « حتى فتحت لهما أبواب السماء ، فرأيا الجنة والنار ، ووعد الآخرة أجمع »[٤] وفي حديث أبى سعيد : أنه عرض عليه الجنة ، وأن رمانها ، كأنه الدِّلاء ، وإذا طيرها ، كأنه البخت ، وأنه عرضت عليه النار ، فإذا هي لو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها[٥] .

وفي حديث شداد بن أوس : « فإذا جهنم تكشف عن مثل الزرابى ، ووجدتها مثل الحمة =

---

(١) روى هذه الرواية البخارى [٦٥٨١] من حديث أنس رضى الله تعالى عنه .

(٢) روى هذه الرواية البخارى [٤٩٦٤] من حديث أنس رضى الله تعالى عنه .

(٣) رواه مسلم [٩٧٢/ ٩٧] ، وأحمد فى المسند [١/ ٣٨٧، ٤٢٢] والنسائى [١/ ٢٢٣] ، كلهم من طريق مرة عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه .

« والمقمحات » جمع مؤنث سالم لاسم فاعل من أقحم ، ومعناها : الذنوب العظام التى تقحم أصحابها فى النار أى تلقيهم فيها .

لسان العرب [١٢/ ٤٦٣] .

(٤) حديث حذيفة رواه أحمد فى مسنده [٥/ ٣٨٧] . والترمذى فى سننه رقم [٣١٤٧] والنسائى فى الكبرى [١١٢٨٠] كلهم من طريق عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن حذيفة رضى الله عنه ، وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٥١٥] .

(٥) حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه رواه البيهقى فى دلائل النبوة [٢/ ٣٩٠] من طريق أبى محمد بن أسد الحمانى عن أبى هارون العبدى - عمارة بن جوين- عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم .

والحديث موضوع :آفته أبو هارون العبدي- عمارة بن جوين- قال فى التقريب [٤٧٨٤] متروك ، ومنهم من كذّبه .

= السخنة »[1] وزاد فيه : أنه رآها فى وادى بيت المقدس ، وفى رواية يزيد
روى ابن أبى مالك عن أنس عن ابن أبى حاتم : أن جبريل قال : يا محمد ، هل سألت ربك أن يريك الحور العين ؟ قال : نعم . قال : فانطلق إلى أولئك النسوة فسلم عليهن . قال : فأتيت إليهن فسلمت ،فرددن ، فقلت : من أنتن ؟ فقلن : خيرات حسان . . . » الحديث .
وفى رواية أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه : « أن إبرهيم الخليل عليه السلام قال للنبى صلى الله عليه وسلم : يا بنيَّ إنك لاقٍ ربك الليلة ، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها ، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جلها فى أمتك فافعل » .
وفى رواية الواقدى بأسانيده فى أول حديث الإسراء : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يسأل ربه أن يريه الجنة والنار ، فلما كانت ليلة السبت لسبع عشرة خلت من رمضان - قبل الهجرة بثمانية عشر شهرًا - وهو نائم فى بيته ظهرًا ، أتاه جبريل وميكائيل فقالا : انطلق إلى ما سألت . فانطلقا به إلى ما بين المقام وزمزم ، فأتى بالمعراج فإذا هو أحسن شىء منظرًا ، فعرجا به إلى السماوات ، فلقى الأنبياء ، وانتهى إلى سدرة المنتهى ، ورأى الجنة والنار ، وفرض عليه الخمس » . فلو ثبت هذا لكان ظاهرًا فى أنه معراج آخر ، لقوله : إنه كان ظهرًا وإن المعراج كان من مكة ، هو مخالف لما فى الروايات الصحيحة فى الأمرين معًا ، ويعكر على التعدد قوله : إن الصلوات فرضت حينئذ ، إلا إن حمل على أنه أعيد ذكره تأكيدًا ، أو فُرِّعَ على أن الأول كان منامًا ، وهذا يقظة أو بالعكس ، والله أعلم .

(١) روى حديث شداد الطبرانى فى الكبير [٧١٤٢] ، والبزار فى مسنده [رقم ٣٢ - مختصر] ، وصححه البيهقى فى الدلائل [٢/ ٣٥٥-٣٥٧] ، وذكره الهيثمى فى المجمع [١/ ٧٨،٧٩] وقال : رواه البزار وأبو يعلى والطبرانى فى الكبير ورجاله رجال الصحيح .

البركة فى القرآن الكريم

السؤال : ما مفهوم البركة الذى جاء ذكره فى قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ ؟[الإسراء : ١]

الجواب : قول الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ البركة هى : أن يعطى الشىء أكثر مما هو متوقع له ، فمثلاً إذا أتينا بطعام يكفى ثلاثة أشخاص ، واجتمع حول المائدة عشرة أشخاص ، وأكلوا وشبعوا ، نقول : إن هذا الطعام فيه بركة ، لأنه كان متوقعًا أن يكفى ثلاثة أشخاص ، ولكنه كفى عشرة ، وكذلك كل شىء يعطى أكثر مما هو متوقع له .

المال القليل إذا كفاك فترة طويلة ، يكون فيه بركة ، والثوب إذا ظل معك سنوات وسنوات من دون أن يبلى يكون فيه بركة ، والبركة مادية دنيوية ، أو روحية دينية ، البركة التى ينتفع بها المؤمن والكافر ، دنيوية فقط ، أما البركة الدينية ، فلا ينتفع بها إلا المؤمن ، وفى ذلك يلفتنا الحق تبارك وتعالى فى قوله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

هذه الآية الكريمة تلفتنا ، إلى أن نِعَمَ اللَّه سبحانه وتعالى ، فى الدنيا هى للمؤمن والكافر ، أما فى الآخرة فهى للمؤمنين وحدهم .

الكافر فى الحياة الدنيا ، يشرب الماء العذب البارد ليطفئ ظمأه ، أما فى الآخرة فإن الكافر إذا طلب الماء ، جاءوا له بماء يغلى ، ومن شدة غليانه ، فإن مجرد اقتراب كوب الماء من وجهه ، يشوى وجهه ، فإذا شربه فإن الماء يغلى فى بطنه .

والدنيا فيها طعام مختلف ألوانه للمؤمن والكافر ، كل يختار حسب ما

يشتهى وحسب الرزق الميسر له ، فإذا جاءت الآخرة ، كان للكافر طعام من ضريع مليء بالشوك لا يسد جوعه ومع ذلك يقطع أمعاءه .

والمؤمن والكافر فى الدنيا يتمتعان بالثياب كل حسب قدراته ، هذا يلبس حريرًا ، وهذا يلبس صوفًا ، وهذا يلبس قطنًا ، فإذا جاءت الآخرة وطلب الكافر الثياب فثيابه من نار تشوى جسده .

وكل منا فى الدنيا يذهب إلى فراشه ليلاً ، ليستريح وينام على فراش من قطن ، أومن ريش أو غير ذلك ، كل حسب مقدرته ، فإذا جاءت الآخرة كان للكافر فراش من نار ، من فوقه ومن تحته ، لا تجعله ينام أبدًا .

وهذا معنى الآية الكريمة التى تبين لنا أن النعم فى الدنيا للمؤمن والكافر ، أما فى الآخرة ، فهى للمؤمن وحده .

إذن . . فالبركة الدنيوية ، ينتفع بها المؤمن والكافر ، لأنها عطاء ربوبية من الله رب العالمين ، الذى خلق البشر كلهم ، واستدعاهم لكونه ، وكفل لهم أرزاقهم ، ولذلك فهو يعطيهم من كل الخير ، أياً كانت صوره ، بدون تفرقة بين مؤمن وكافر .

وهناك بركة دينية . . يختص بها الله عباده المؤمنين فقط .

المسجد الأقصى جعل الله سبحانه وتعالى حوله بركة دنيوية ، وبركة دينية ، لأنه شهد رسل الله كلهم إبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب ، وزكريا ، ويحيى ، وموسى وعيسى ، وهو مهبط الوحى على كل هؤلاء . كما أنه شهد إمامة النبى محمد صلى الله عليه وسلم للأنبياء فى الصلاة ليلة الإسراء والمعراج ومن هنا كانت فيه بركة دينية .

ومعنى قول الحق : ﴿ ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ أى : أوجدنا حوله بركتين : بركة مادية فيما تعطى الأرض ، وفيما يأتى إليه من ثمرات ، وبركة دينية خاصة بالقيم التى أُنزلت من السماء . . ومن اتبعها أخذ بركة الآخرة . . وكانت له نعم فى الآخرة لا تعد ولا تحصى . . فكأن الكافر يأخذ بركة الدنيا . . والمؤمن يأخذ بركتى الدنيا والآخرة .

درجات الجنة

السؤال : كيف حال الناس فى الجنة ؟

الجواب : الحق تبارك وتعالى يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجرى من تحتها الأنهار . . والجنات جمع جنة ، وهى جمع لأنها كثيرة ومتنوعة . . وهناك درجات فى كل جنة أكثر من الدنيا . . واقرأ قوله تبارك وتعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ . [الإسراء : ٢١]

الجنات نفسها متنوعة . . فهناك جنات الفردوس ، ، وجنات عدن ، وجنات النعيم . . وهناك دار الخلد ، ودار السلام ، وجنة المأوى . . وهناك عِلِّيُون وهى أعلى وأفضل الجنات . . وأعلى ما فيها - أي فى هذه الجنات - التمتع برؤية الحق تبارك وتعالى . . وهو نعيم يعلو كثيرًا أي نعيم فى الطعام والشراب فى الدنيا .

والطعام والشراب بالنسبة لأهل الجنة لا يكون عن جوع أو ظمأ . . وإنما عن مجرد الرغبة والتمتع . واللّه جل جلاله فى هذه الآية يَعِدُ بأمر غيبى . . ولذلك فإنه لكى يقرب المعنى إلى ذهن البشر . . لابد من استخدام ألفاظ مشهودة وموجودة . . أي عن واقع نشهده . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧] .

إذن . . فما هو موجود فى الجنة لا تعلمه نفس فى الدنيا . . ولا يوجد لفظ فى اللغة يعبر عنه . . ولا ملكة من ملكات المعرفة كالسمع والنظر قد رأته . ولذلك استخدم الحق تبارك وتعالى الألفاظ التى تتناسب مع عقولنا وإدراكنا ، فقال تعالى : ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [الفرقان : ١٠] .

على أن هناك آيات أخرى تقول : ﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ما الفرق بين التعبيرين . . تجرى تحتها الأنهار . . أى : أن نبع الماء من مكان بعيد وهو يمر من تحتها . . أما قوله تعالى : ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ . فكأن الأنهار تنبع تحتها . . حتى لا يخاف إنسان من أن الماء الذى يأتى من بعيد قد يقطع عنه أو يجف . . وهذه زيادة لاطمئنان المؤمنين أن نعيم الجنة باق وخالد .

وما دام هناك ماء فهناك خضرة ومنظر جميل ولابُدّ أنْ يكون هناك ثمر . وفى قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ [البقرة : ٢٥] . حديث عن ثمر الجنة . . وثمر الجنة يختلف عن ثمر الدنيا . . إنك فى الدنيا لابد أن تذهب إلى الثمرة وتأتى بها أو يأتيك غيرك بها ، ولكن فى الجنة الثمر هو الذى يأتى إليك . . بمجرد أن تشتهيه تجده فى يدك ، وتعتقد أن هناك تشابهًا بين ثمر الدنيا وثمر الجنة ، ولكن الثمر فى الجنة ليس كثمر الدنيا لا فى طعمه ولا فى رائحته . . وإنما يرى أهل الجنة ثمرها ويتحدثون : يقولون : ربما تكون هذه الثمرة هى ثمرة المانجو أو التين الذى أكلناه فى الدنيا ، ولكنها فى الحقيقة تختلف تمامًا ، قد يكون الشكل متشابهًا ولكن الطعم يختلف .

فى الدنيا كل طعام له فضلات يخرجها الإنسان . . ولكن فى الآخرة لا يوجد للطعام فضلات بل إن الإنسان يأكل كما يشاء بدون أن يحتاج إلى إخراج فضلات ، وذلك لاختلاف ثمار الدنيا عن الآخرة فى التكوين .

إذن ففى الجنة : الأنهار مختلفة والثمار مختلفة ، والجنة يكون الرزق فيها من اللّه سبحانه وتعالى الذى يقول : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] ولا أحد يقوم بعمل .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥] .

الزوجة هى متعة الإنسان فى الدنيا إن كانت صالحة . . والمنغصة عليه إن كانت غير صالحة . . وهناك منغصات تستطيع أن تضعها المرأة فى حياة

زوجها تجعله شقيا فى حياته . . كأن تكون سليطة اللسان أو دائمة الشجار ، أو لا تعطي اهتمامًا لزوجها أو تحاول إثارته بأن تجعله يشك فيها ، أما فى الآخرة فتزول كل هذه المنغصات وتزول بأمر اللّه . فالزوجة فى الآخرة مطهرة من كل ما يكرهه الزوج فيها ، وما لم يحبه فى الدنيا يختفى . فالمؤمنون فى الآخرة مطهرون من كل نقائص الدنيا ومتاعبها وأولها الغل والحقد . . واقرأ قول الحق جل جلاله : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ . [الحجر : ٤٧] .

فمقاييس الدنيا ستختفي وكل شيء تكرهه فى الدنيا لن تجده فى الآخرة ، فإذا كان أي شيء قد نغَّص حياتك فى الدنيا فإنه سيختفى فى الآخرة ، والحق تبارك وتعالى ضرب المثل بالزوجات لأن الزوجة هي متعة زوجها فى الدنيا . . وهى التى تستطيع أن تحيل حياته إلى نعيم ، أو إلى جحيم .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . . أي لا موت فى الآخرة ولن يكون فى الآخرة وجود للموت أبدًا ، وإنما فيها الخلود الدائم إما فى الجنة وإما فى النار .

لا تفقهون تسبيحهم

السؤال : يقول الله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤] فهل يمكن القول بأن للكائنات لغات وإن كانت لا تدخل فى نطاق فهمنا ؟

الجواب : نعم . . نحن نفهم التسبيح على أنه لغة وصوت . . ولكن هناك أداء لا يشترط فيه الصوت . . لأنك مرة تقوم بأداء بدون صوت وبدون حركة . وبالنظرة يمكن أن تؤدى ، تنظر إلى ابنك أو خادمك أو لأي أحد فيفهم ما تريد .

إذن . . فالأداء لا يشترط فيه أن يكون بصوت .

حينما يكون هناك أداء صوتي بلغة من اللغات ، وبعد ذلك جئت إلى قوم يتكلمون لغة غير لغتك ، أتفهم عنهم ، أو يفهمون عنك ؟

إذن . . فالصوت فى ذاته لا يفهم إلا بالتواضع والاتفاق على معناه .

إذن . . فما دمت لا تفهم المتواضع من المعنى المراد فيستوي أن يوجد صوت أو لا يوجد .

لكل جنس لغته التى يتفاهم بها ، ولغته التى يسبح بها ، وإن كنت أنت لا تعرف ذلك ، فليس ذلك بدعة . . لماذا ؟

لأنك تسمع أصواتًا هي شريكة أصواتك اللغوية فى مخارجها ، ولكن مؤداها الوضعي لا تفهم منه شيئًا .

إذن . . فإذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩] لا نقول : هذا تسبيح دلالة لماذا ؟ لأن بعضهم يقول : إن التسبيح هنا تسبيح دلالة على الخالق . . ولو قلنا برأيهم لكنا قد فهمناه ! والذى خلقنا وعلّمها وعلّمنا قال : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

إذن . . فهو ليس تسبيح دلالة فقط . . إنه تسبيح أدائى ، فاللَّه تعالى يقول : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩] ويقول : ﴿ يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ [سبأ : ١٠] . يعنى : سبحى اللَّه معه . . إن الجبال تؤوب إلى اللَّه مع غير داود ، ولكن الحق سبحانه وتعالى ميز داود عليه السلام أفهمه لغة ذلك الجماد فجعل تسبيحه يوافق تسبيح الجماد . . تمامًا مثلما يعملون « كورساً » تسبيحياً للَّه .

تسبيح الحصى

السؤال : وما القول فى تسبيح الحصى فى يد النبى محمد صلى اللّه عليه وسلم ؟

الجواب : لا تقولوا : سبح الحصى فى يد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قولوا : سمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تسبيح الحصى فى يده وفهمه . . وإلا فالحصى يسبح فى يد الكافر ، إذن . . فالميزة ما هى ؟ هي أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سمع تسبيح الحصى[1] .

---

(١) جاء فى كنز العمال للمتقى الهندى [٣٥٤٠٩] عن أبي ذر رضى اللّه تعالى عنه قال : لا أذكر عثمان إلا بخير بعد شيء رأيته كنت رجلا أتتبع خلوات رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أتعلم منه فرأيته يوما خاليا وحده فاغتنمت خلوته فجئت حتى جلت إليه فقال يا أبا ذر ! ما جاء بك ؟ قلت : اللّه ورسوله ، فجاء أبو بكر فسلم ثم جلس عن يمين رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : يا أبا بكر ! ما جاء بك ؟ قال : اللّه ورسوله ثم جاء عمر فسلم وجلس عن يمين أبي بكر فقال : يا عمر ! ما جاء بك ؟ قال : اللّه ورسوله ثم جاء عثمان فسلم ثم جلس عن يمين عمر فقال : يا عثمان ! ما جاء بك ؟ قال : اللّه ورسوله ، وبين يدي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سبع حصيات - أو قال : تسع حصيات - فأخذهن فوضعهن فى كفه فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم أخذهن فوضعهن فى يدي أبي بكر فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عمر فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عثمان فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : هذه خلافة النبوة . وعزاه لابن عساكر

وقال الحافظ فى الفتح : رَوَى ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ طَرِيق عَمْرو بْن مَيْمُون عَنْ ابْن مَسْعُود بِإِسْنَاد صَحِيح إِلَيْهِ نَحْو ذَلِكَ وَفِيهِ : « وَأَصْبَحَ يُونُس فَأَشْرَفَ عَلَى الْقَرْيَة فَلَمْ يَرَ الْعَذَاب وَقَعَ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ فِي شَرِيعَتهمْ مَنْ كَذَبَ قُتِلَ ، فَانْطَلَقَ مُغَاضِبًا حَتَّى رَكِبَ سَفِينَة - وَقَالَ فِيهِ - فَقَالَ لَهُمْ يُونُس إِنَّ مَعَهُمْ عَبْدًا آبِقًا مِنْ رَبّه وَإِنَّهَا لاَ تَسِير حَتَّى تُلْقُوهُ ، فَقَالُوا : لا نُلْقِيك يَا نَبِيّ اللّه أَبَدًا ، قَالَ فَاقْتَرِعُوا فَخَرَجَ عَلَيْهِ ثَلاث مَرَّات ، فَأَلْقَوْهُ فَالْتَقَمَهُ الْحُوت فَبَلَغَ بِهِ قَرَار=

= الأَرْض ، فَسَمِعَ تَسْبِيح الْحَصَى ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ ﴾[الأنبياء : ٨٧] الآية .

وقال الحافظ ابن كثير فى البداية - قصة يونس عليه السلام - لما جعل الحوت يطوف به فى قرار البحار اللجية ويقتحم به لجج الموج الأجاجي فسمع تسبيح الحيتان للرحمن وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى ورب السموات السبع والأرضين السبع وما بينها وما تحت الثرى فعند ذلك وهنالك قال ما قال بلسان الحال والمقال كما أخبر عنه ذو العزة والجلال الذى يعلم السر والنجوى ويكشف الضر والبلوى سامع الأصوات وإن ضعفت وعالم الخفيات وإن دقت ومجيب الدعوات وإن عظمت حيث قال فى كتابه المبين المنزل على رسوله الأمين وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ ﴾ إلى أهله ﴿ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾[الأنبياء] .